روايات الهلال

حوّادم

بهيجة مصري إدلبي

53 95

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد
عزالعرب بك (المهندسان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
- تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦٠٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

طبع هذا العدد بأحبار باكين
باكين

الكتاب: حوّادم
المؤلف: بهيجة مصرى إدلبي
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
رقم الإيداع: ٢٥٣٨١/ ٢٠١٥
الترقيم الدولى: 978 - 977 - 07 - 1737 - 0

حوّادم

رواية

بهيجة مصرى إدلبي

حوّادم فى حساب الحروف:
حواء + آدم
الإنسان الكامل

الإهداء

إلينا
بصمت نرسم
أحلامنا

إرث الحيرة

كان الليل يهبط بطيئا على شرفتها وهى تدخل ليلة جديدة من صمتها، وتأملها. قالت فى نفسها:

ـ أية حيرة أورثتنى إياها يا أبى، كيف لى أن أستدل على حضورى فى غياب العالم عنى، وكيف لى أن أنهض من هذا الصمت الذى يزداد كل يوم كثافة وعتمة، فلا أرى سبيلا إلى وجودى غير التوسل بالحرف والكلمات، لأكتشف بعض ما يؤوله الصمت فى هذه الوحدة.

تأملت الأوراق التى أمامها، فطوتها لحظة من الغياب، ودخلت فى تأملات الغيبة.

العتمة تضيء فى ذاتها فتقرأها، لم يستطع أحد من قبل قراءته، وتعرف ما عجز العرافون والمنجمون وأهل الكشف عن معرفته.

تمتص العتمة كما تمتص الأوراق مدادها، وتغمض عينيها عليها فترى وتكشف.

ورثت حيرة المعرفة وقلق السؤال، عن أبيها مع البيت الذى تنازل عنه الأخ الأكبر راشد والأخت الأصغر نديمة لأختهما وجد، نزولا عند رغبة أبيهم الذى طلب منهم ألا يفرطوا بالبيت، إذا لم يكونوا بحاجة إليه، وطلب من راشد ونديمة أن يعينا شقيقتهما وجد، لأنها وحيدة فوعداه أن يتنازلا عن البيت لها.

غاب الأب تاركا ظله فى كل زاوية من زوايا البيت، وأنفاسه فى كل صفحة من صفحات الكتب التى تملأ جدارين من غرفة المكتبة.

كانت وجد تمضى الساعات وهى تتصفح الكتب التى ملأ هوامشها أبوها بكتاباته وتأملاته، وآرائه، حتى فكرت أن تجمع تلك الأفكار والكتابات فى دفتر تحتفظ به لذاتها، تقرأه بين فينة وأخرى لأنه يحفّز فى ذاتها الكتابة والتأمل.

تأملت المرآة التى وضعتها أمامها، وقرأت وجهها فى تقلباته مسحت عليه بكفها، وكأنها تتحسس الزمن الذى ألقى بغباره على ملامحها، وأحلامها، انسحبت كفها ببطء لتعود إلى القلم والأوراق، بعدما أدارت المرآة إلى الجدار، وكأنها تصدم الزمن بالجدار ليلقى بظلاله عليه، فترى ظلها فى ظله.

غادرها منذ أكثر من سبع سنوات، ولم يكن قد مضى على زواجهما غير عامين، هى الآن فى الأربعين من عمرها، دخلت فى التحولات والتقلبات والأحوال.

مسحت ذاكرتها، فكان صمت، ثم صمت، ثم صمت، ثم تأمل وكلام، ثم توالت الصور والأيام، تعرّف عليها وكانت قد بدأت عملها فى معهد التراث فى جامعة حلب، تعيد إلى المخطوطات يقينها، بعد حيرتها. ووجودها، قبل أن يفتتها الزمن فتغيب الحروف والكلمات، وتغيب معها المعانى والأسرار والأزمنة.

تحدث معها وكانت حينها فى الثلاثين من العمر فمالت إليه، لتسند أيامها، تسند روحها من الذوبان فى الزمن، بينما هو مال إلى بيتها الذى ورثته عن أبيها وإلى راتبها الذى تتقاضاه مقابل تيهها فى عالم المخطوطات.

لم تكن وقتها قادرة على قياس ميلانِه ووجْهَته فتزوجته، ولم تترك له مجالا لإظهار ميلانه، لأنها لا تريد أن تربك يقينها، فسكن فى بيتها، أرادت أن ترمم أيامها به، وأن يرمم وحدتها بوجوده لتستعيد وجودها، لم يخالفها شقيقها الأكبر راشد، رغم أنه لم يكن مرتاحا كل الارتياح إليه، ورغم ذلك قال لها: أنت أعلم به منى، وأدرى بحياتكِ من غيرك، ومن حقكِ أن تستقرّى، فمالت إلى هذا الرأى الذى يوافق ما فى نفسها.

لم تظهر عليه فى العام الأول أية دلالات أو علامات على سلوكه، تنبئ بما سيؤول إليه المصير، ولكن تغيبه عن البيت فى الآونة الأخيرة أفسح لها مساحة للتفكير فى تغيراته وأسباب هذه التغيرات والتقلبات التى أيقظت فى نفسها القلق والحيرة، فخمّنت للوهلة الأولى أن سبب تغيبه عن البيت، وعدم رغبته فى زيادة الانزياح والميلان إلى روحها القلقة، كان فى عدم الإنجاب، فاستعانت بالأطباء والقابلات وحتى بالمشايخ والمنجمين والمنجمات من أجل البحث عن أمومتها، واستعادة زوجها إلى يقين حلمها، لكن الأمر لم يكن فى صالحها.

لم تفاتحه بالأمر ولم يفاتحها، لكن ما أثار استغرابها، أنها لم تلاحظ عليه ميلا إلى الأبوة والأولاد، وأن مساعيها التى أرهقتها، وأقلقت ليلها ونهارها، من أجل أن تحقق له تلك الأمنية، كانت بلا جدوى، فالإنجاب لم يكن يدور فى تفكيره، بل وجدت لديه نفورا من هذا الأمر، فأوقعها هذا الأمر فى شك من أمرها رغم الطمأنينة الباهتة التى وقعت فى نفسها.

حاولت أن تستعيده بما تملك إلى ألفة البيت، عندما خمّنت أن غيابه متصل بالتدريس والإرهاق والدروس الخصوصية، فقد شكا لها فى لحظة من اللحظات من ذلك، وعندما وجد اهتماما بالأمر من طرفها، ذهب فى شكواه إلى أقصاها، خاصة عندما فاتحته بالأمر وقال لها: أفكر بالسفر ليوقعها فى شباك الحيرة فتتمسك به أكثر وتميل إلى إرضائه، وكان له ذلك فقد أوقعت فكرة السفر فى نفسها خوفا كبيرا، تحدثت معه عن البدائل فأمعن فى الشكوى من الأحوال والظروف، لكنه أبدى لها اطمئنانا إلى الاقتراح الذى أوحى لها به، فمال إلى رصيدها فى البنك الذى كان نصيبها من إرث أبيها وأقنعها بالدخول فى مشروع تجارى مع أحد أصدقائه الذين يجعلون القرش مئة دون أن ينزاحوا بأعمالهم عن الكسب الحلال، ورسم لها صورة مشرقة لما سيؤول إليه حاله وحالها لو دخل فى هذا المشروع ذى

الربح المضمون والوفير، ومن جهة أخرى أوحى لها بأن هذا الأمر سيقرّبه من البيت أكثر، بل من المؤكد أنه سيقرّبه من السرير، فمالت معه إلى ما يريد حتى إذا شعر بامتلاكه لما تملك جاءها بعد أشهر وشكا إليها الخسارة التى ألمت به، وأدخلته فى حالة من اليأس، وكادت تشعر بالدموع تعينه على حاله فأوجست فى نفسها عطفا وخوفا، لكنها لم تعد تملك غير البيت الذى يسكنان فيه، وفكرة التفريط به، فكرة مستحيلة، بل فكرة لم ترد على تفكيرها.

ولم تدرك حتى الآن كيف أقنعها ببيعه والسكن فى بيت إيجار لاستثمار ثمن البيت فى مشاريع أكد لها أنها ستكون مربحة، وتختلف عن المشاريع التى أوقعته فى الخسارة، بل لعله يعوّض خسارته، وربما يستعيدان استقرارهما بعد ذلك ببيت جديد.

لكنه غاب بعدها وأرسل لها ورقة الطلاق، فأذهلتها المفاجأة، لكنها سلّمت بما كان بعدما خيبها القضاء والقضاة والمحامون فى استعادة ما سلب منها، فرأت أن تستقر فى الحال الذى هى عليه، وأن تحافظ على راتبها من الضياع فى أيدى القضاة والمحامين، واستعانت بشقيقها فاشترى لها منزلا صغيرا بالقرب من منزله.

ومن يومها شعرت أن نصفها تاه عنها، وأنها لم تعد قادرة على البحث عنه، لذلك دخلت فى تيهها وتركته فى تيهه.

ومن يومها أيضا ضربت طوقا من العزلة والصمت حولها، خلا بعض الزيارات لشقيقها القريب منها. وانعكس هذا السلوك حتى فى عملها حاولت أن تبتعد عن أية ضوضاء واختلاطات مكتفية بما تمنحه لها تلك المخطوطات من أسرار وعوالم، قالت لها إحدى زميلاتها التى كانت مقربة منها، وكانت تفضى لها بأسرار لا تفضى بها لغيرها:

- ما بك يا وجد.. أراك تميلين عنى وعن كل الزملاء، وكأنك أصبحت جزءا من العزلة والعزلة أصبحت جزءا منك، هل للمخطوطات أثر فى ذلك على نفسيتك، أم إن غياب خالد بعدما أيقنت بحضوره حضورك، هو السبب.

- ليس فى الأمر شيء مما تفكرين فيه، وإنما هى رغبة فى غربلة الذات والنفس، عسانى أدخل فى صفاء آخر، بعيدا عن العالم.

- رغم أننى لا أوافقك على كثير من أفكارك، لكننى لا أعرف لماذا أحب أفكارك، وأرغب بقراءة ما تكتبين.

- سيأتى اليوم الذى تقرئين فيه ذاتى على الورق، ووجدى فى الحبر، وحرفى فى السر.

لم تعرف كيف كانت تتحدث مع زميلتها، بهذه اللغة، لكنها لم تكن قادرة على غيرها، لعله التحول فى النفس والذات، والمعرفة، يورث تحولا فى اللغة والمعنى.

ومنذ عام فقط، لبستها الأسئلة الغامضة، وشدها القلق إلى مسافات من التأمل بعدما وجدت مخطوطة قديمة تعود إلى بداية العهد العثمانى، وكانت تحمل عنوان (حوّادم) للكاتب، عارف مصطفى نسيم الطيار، الذى عاش بين عامى ١٦٥٠ و١٧٢٠ ميلادى.

أدخلتها هذه المخطوطة فى حيرة وقلق وسؤال، فإلى جانب اسم المؤلف الذى لم يرد لديها خلال دراستها وخلال بحثها فى المخطوطات التاريخية والأدبية، إضافة إلى ما أثاره عنوان المخطوطة من سؤال حول خروجه عن مألوف العناوين التى كانت فى تلك المرحلة التاريخية، فهو مؤلف من كلمة واحدة منحوتة، حاولت الاستعانة بالإنترنت للبحث عن اسم هذا المؤلف، عساها تجد شيئا من سيرته، إلا أنها لم تعثر على أى شيء له صلة به ربما لأن المخطوطة غير محققة وغير منشورة بعد، لذلك قررت أن تحققها وأن

تنشرها، بعدما اطلعت على الفصل الأول منها فوجدتها من الأهمية لأن تصنف بين الكتب الإبداعية الفلسفية، التى تشتغل على الكلمة والمعنى، لذلك أقلقها البحث عن اسم هذا المؤلف وعن حياته، لتستعين بها على تقديم المخطوطة ودراستها، سألت بعض الباحثين والمختصين فى هذه المرحلة التاريخية، إلا أنها لم تجد أى جواب شاف يفيدها فى مجال بحثها، حتى رئيس جمعية «العاديات» الذى كانت تظنه على اطلاع واسع فى هذه المرحلة التاريخية، لم يفدها بشيء، بل وجدته يقف مذهولا أمام تلك الأفكار التى حدثته عنها والتى تضمنتها المخطوطة، طلب منها أن يسهم معها فى التحقيق، إلا أنها لم تمكنه من استغلال جهدها، وربما ينسب اكتشاف المخطوطة لنفسه، كما اكتشف المكان الذى كان فيه منزل المتنبى. اعتذرت إليه بلباقة، لتستمر فى البحث والسؤال عن صاحب هذه المخطوطة، حتى أخبرها أحد الباحثين بأنه سمع بهذا الاسم، وأشار لها إلى كتاب قديم بحثت عنه حتى وجدت نسخة قديمة منه فى المكتبة الوطنية، حينها عثرت على سيرة مختصرة للكاتب عارف مصطفى نسيم الطيار، وعرفت أن التاريخ الذى كان على غلاف المخطوطة هو من إضافة صديق عارف الطيار أضافه بعد موته، محتفظا بنسخته فى مكان آمن من عيون المراقبين، وقرأت أن عارف الطيار يعد من فلاسفة عصره، ومن الفقهاء المتنورين الذين لهم آراؤهم وأفكارهم الخاصة، وتأويلاتهم للتاريخ، وللوجود، بلغة هى أقرب إلى لغة الشعر الحديث فى عصرنا، وأنه كان شديد الانتقاد لممارسات الولاة العثمانيين فى حلب، وكانت له كتابات كثيرة أحرقت جميعها عندما تم القبض عليه بأمر من الوالى، بعد اتهامه بالزندقة، وسب السلطان، لينتهى نهاية مفجعة، كما انتهت كتبه نهاية أشبه بنهاية كتب أبى حيان التوحيدى، ولم ينج من كتبه سوى هذه المخطوطة، وبعض الأوراق المتفرقة التى جمعها بعض الأصدقاء تحت عنوان (من أوراق الفيلسوف عارف مصطفى نسيم

الطيار). لتقرر البحث عن تلك الأوراق، أو بعضها، رغبة منها فى الاطلاع على تلك الأوراق، التى لم يجمعها هو ذاته، ولا شك فى أنها تحمل أفكارا متفرقة، وموضوعات مختلفة، وهذا ما جعلها تصر على البحث عنها، لأنها قد تجد فيها مفاتيح موضوعات تعينها على قلق الكتابة لديها.

هكذا وجدت نفسها أمام إرث آخر من الحيرة، كان للمخطوطة سحرها، وغوايتها التى تمتلك على قارئها نفسه وذاته، وكانت كلما قرأت بعضا من صفحاتها وأعادت نسخه تجد فى نفسها ميلا إلى الكتابة كأن هذه المخطوطة تبعث فى نفسها روحا جديدة، ورؤى مختلفة تخرجها من ذاتها لتتصل بعوالم لم تخطر على بال.

كانت تجلس كل ليلة بعدما تنتهى من فصل أو بعض الأوراق من المخطوطة تتأمل السماء والنجوم والعالم فتجد نفسها تغوص وتغوص فى ذرات الزمن بل كان الزمن يتلاشى أمام عينيها فلا ترى غير هلام الدقائق والثوانى وهى تضيع فى أفق الوقت، فتقرأ ما بين سطور الكون ما تقرأ، وكأن تاريخا واضح المعالم قد دُوِّن على صفحات هذا الكون، وعندما تكتمل الأسرار فى نفسها كانت تكتب ما رأته فى مقام التأمل.

شعرت وكأنها تكتب وجودها فى مقام أحلامها وترى أحلامها فى مقام ذاتها، وترى ذاتها فى مقام الوجود، أبعدت المرآة عن طاولتها المركونة أمام نافذة تستطيع خلالها أن ترى السماء ونجومها، وعتمتها، ومسافاتها.

بل شعرت وكأن عارف الطيار هو ذاتها، هو حرفها وكلمتها، هو نصفها الغائب فى غياهب الزمن، قرأت الكثير من الكتب الروحية، والكتب النفسية، وكتب السحر، حاولت أن تضع ذاكرتها فى مختبر تلك القراءات، فدخلت فى حالة من الغيبوبة، دون أن تغيب عن الوعى، كانت ترى ما حولها ولكن عبر زمن هلامى، تسمع ولكن عبر موجات ذاتها المتماهية مع موجات الزمن.

أرادت هذه الليلة أن تقرأ ما كتبت وكان كثيرا، أعادت تصحيح بعض الصيغ والجمل والكلمات، شعرت بعدها بالتعب فغفت فوق أوراقها وهى على الكرسى خلف الطاولة.

قال لها:

ـ أنا نصفك الغائب عنك.

قالت له:

ـ أنا مكتملة بى.

قال :

ـ ولكنك مازلت تبحثين عنى.

ـ أبحث عن الحقيقة.

ـ أية حقيقة ؟

ـ حقيقتنا.

ـ أنا وأنت ؟

ـ أنا والعالم.

ـ إنك غريبة وعنيدة ومجنونة.

ـ أنا الغرابة ذاتها، والعناد نفسه والجنون عينه، كأنك لم تستطع إتقان ما أنت فيه.

ـ ولكنى أريد أن أعرف.

ـ إذن لن تبلغ مقامى حتى تصبح عارفا.

ـ وكيف ؟

ـ عليك أن تبدأ بالتأمل.

ـ وكيف ؟

ـ لا يجوز لك السؤال حتى تدخل فى الحال.

فصمت.

حينها قالت له :

- الآن بدأت بالخروج من جهلك، وعندما يكتمل خروجك تبدأ بالدخول فى المعرفة.

- وكيف لى أن أدخل، وكيف لى أن أعرف نهاية خروجى.

- سأنبئك بذلك فى وقته.

- وماذا عليّ أن أفعل الآن؟

تلاشت الجدران من أمامها، فبانت لها مسافات واسعة من البياض، حاول الاقتراب منها لكنها قالت:

- عليك بالابتعاد حتى تتلاشى فى ذاتك عندها تلاشى فى ذاتى؟

وأشارت إلى جبل بان لها فى مسافة البياض:

- عليك أن تخرج إلى هناك وتجلس فى كهف ستجده سبع ساعات كل يوم وفى الوقت الذى تشاء وعليك أن تدوّن كل ما يخطر ببالك وعندما يكتمل خروجك سبع ساعات فى سبعة أيام نلتقى مرة أخرى.

فغاب وغابت المسافات عنها، لم تتبين ملامحه تماما، ولكنها أدركت أنها تعرفه، وتدرك ما فى نفسه: إنه فى نفسها، وما أدخل الطمأنينة إلى روحها أنه لا يشبه الذى غادرها وغاب، فغيب أحلامها فى الغياب، ارتفع صوت المؤذن من مئذنة المسجد القريب يعلن عن صلاة الفجر، رفعت رأسها عن الأوراق، مسحت وجهها.. نهضت أعدت فنجان قهوة بعدما أدت الصلاة، ثم عادت إلى ما كانت فيه، لم تدرك أى حلم كان.. لكنها شعرت بيقين وجوده، وكأنها تنتظر سبعة أقمار لتلتقى به.

وعادت إلى كتابة بعض الأفكار التى خطرت ببالها، ثم استسلمت لنوم عميق، كانت تصعد فى النور، كان النور الذى يحيط بها أشبه بحروف تتنزل فى ذاتها، لتصعد الكلمات قصائد لا نهائية المعنى.

●●●

نهضت من على الكرسى بعدما طوت الأوراق، وتمددت على السرير، باسترخاء، وكأنها تريد الخروج من جسدها، والدخول فى الغياب، ولم تشأ تأويل أو تفسير ما يحدث معها، لأنها لا تريد أن تخنق لحظة الصفاء والصعود بأى تأويل يفسد صفاء الحال، وما إن غفت حتى رأته جالسا على طرف السرير، كادت تفيض روحها بالحزن، وكأنها غائبة فى ذلك الزمن الغارق فى دهوره، تسللت روحها عبر ذاكرة الزمن، كانت بين النوم واليقظة، فقد شعرت بحالة أشبه بالتلاشى فى الصمت، سألته:

ـ ما الذى أتى بك؟

ـ لقد أكملت الوقت سبعا تشف عن سبع، فأدركنى التأمل كما أدركنى الحرف.

ـ وهل دوّنت تأملاتك؟

ـ تأملت، فرأيت، فكشفت، أردت أن أكتب ما كشفت فخفت، لعله زمن غامض بما يحمل إلينا، شعرت كأن طوفانا من النار يلتهم الأخضر واليابس، وكنت أركض فى طريق لا نهاية لها، حتى رأيتك كسحابة بيضاء، فانتشلتنى من طريق الطوفان، وعندما عدت من تأملاتى كتبت:

سننهض من أسمائنا

لنغيب فى أسرارنا

معا نتأمل

معا نرى

معا نكشف

معا نرفع بعضنا إلى مقام الأحلام

معا نتلاشى فى بعضنا لنكتمل

معا نبوح بكل ما لدينا

ونقتفى سر الوجود
معا سندرك كل أسرار الخلود.

كانت تصغى إليه بكل ذرات جسدها، لكنه غاب فجأة، حاولت أن تستعيد صوته، لكنها فشلت، نهضت من نومها وحالة من الذهول تتغشاها، بحثت عنه فى أرجاء الغرفة فلم تر أحدا، نادت عليه، فتحت نافذة الغرفة، كانت العتمة تنسحب شيئا فشيئا تهيأ لها أنها رأته يلوح لها فى دائرة من النور، لوحت له، وبقيت تتأمل الغياب، شعرت بصداع فى رأسها، عادت إلى السرير جلست على طرفه، غمرت وجهها بكفيها، لم تعد لديها القدرة على الفصل بين الحلم واليقظة، لكنها شعرت برائحته حول السرير، شعرت بطيفه الذى كان يملأ المكان. حاولت أن تذكر ما كتبه فلم تذكر غير كلمات قليلة، مسحت وجهها بكفيها، واتجهت إلى المغسلة لتلقى على وجهها بعض الماء لعلها تصحو وتستعد للذهاب إلى عملها.

وعندما لمست الماء أحست كأن قطراته حروف تتشكل فى كلمات، وأن الكلمات تمسح عنها ظلها، لتدخل فى حقيقة لم تدركها من قبل قالت فى سرها:

أيها الماء
أنزل كلماتك فى روحى لتغسلنى
أيها الماء
إن الصمت يأخذنى
أيها الماء
خذنى إلى يقينى ووجودى وخلودى.

سمعت همسا فى ذاكرتها:

- كنت فى ذاتك بعدما تلاشيت فى ذاتى، فاستويت فى مرآتك عندما استويت فى مرآتى.

تركت الماء ينساب على وجهها ووقفت أمام المرآة كمن يقرأ فى صفحات كتاب من الظلال.

أرهقها البحث عن سيرة عارف الطيار وكتاباته، إلى أن يئست فى التوصل إلى أكثر مما توصلت إليه، استطاعت أن تعثر على بعض من مخطوط (من أوراق عارف الطيار)، كانت كتابات مكثفة، تنهض على خلفية من صوفية المعنى، والخطاب، هكذا قالت عنها بعدما قرأتها، تمنت لو عثرت على بقية المخطوط، لكن ظروف الحرب التى اشتعلت فى المدينة، لم تساعدها على البحث فى المكتبات، وشعرت بحزن عميق عندما سمعت بأن المكتبة الوطنية دمرت عن بكرة أبيها، فتناثرت الكتب والمخطوطات مع ألسنة النيران لتصبح رمادا، قالت حينها، أى تاريخ سنقرأ بعد ذلك، وكل شيء تحول إلى رماد، ما الذى سنتركه لمن سيأتى بعدنا، لا شيء سوى الغبار، الغبار الغبار.

مخطوط حوّادم

تأليف عارف مصطفى نسيم الطيار

١٦٥٠ ـ ١٧٢٠ ميلادي

تحقيق : وجد عبد القادر

ترانيم

ح

حيرة بكرٌ حملتنا

ثم حلتْ حالها فى حالنا وطوتنا

و

وُجدنا من طينة الصمت

فكنا رحلة الموت فى الطين

لأننا وجع الحرف فى الريح

أ

آلت الأشياء من أسمائها إلينا

فاستوت فى سرنا الأسماء

د

دلّنا الوقت على نهايتنا

فطفقنا نخصف من أحلامنا

علينا

لنرى

م

ملأنا رؤانا

بكلام لم يكن وقتها يشبه الكلام

ولم تكن الأشياء

تعرف أسماءها

وبعد أن كنا

حلّ كل شيء باسمه

وكانت البداية

من رسائل التيه

الرجل

فى البرد وحيداً قد حللتْ / الوحدة كانت وجعا فى المرآة فاستويتْ/ الرملُ أتعب رحلتى فانطويتْ / رحلتى التى بدأت من وجعى وأغنيتى / لا أعرف مسافتى ولا مسافة رحلتى / أعبر فى ضلال الصمت لا أعرف ظلّى / ولا وجهى / ولا جهتى.

وحيداً فى التيه مشيتْ / مشيت لا ريح لكى تمحو خطاى / ولا خطى تنبه ذاكرة الطريق عليَّ / ولا صدى يرتدُّ من صوتى إلى شفتى.

وجهها عنى تاهْ / تاه عنى وجهها / رائحة شعرها / دفء أصابعها / سحر عينيها / فتنتها/ كأنى مسافة من العتمة لا نهائية السر.

تاه عنى يقينى وجف الهواء فى رئتى / فتلفتُّ كما تتلفتْ الدائرة / فلم تكن جهات تشير إليّ/ أرفع يدى فلا أراها فى الضباب / الضباب الكثيف تتماهى فيه الأشياء/ الأشياء تفكر بأسمائها التى تستدل عليها فى الضباب.

والماء يملأ فراغات الكون / الكون الذى أجهل أسراره / الكون الذى لم يكتمل بعد / الكون الذى يسبح فى الماء / والماء لم يحمل بعد أحلامى / ولا صفتى فى البرد.

الكلام جليد / تجمدت لغتى فى أروقة الحروف / الحروف التى لم تكن إلا لأجلها / الحروف التى تشبه أشجارا تتنفس فى العتمة من شعرها.

كقصيدة ملت احتراقها / أتململ / وأنزلق فى فجوة منى / فجوة بوّابها الصمت / صمت جارح كعينيها حين كانت تفكر بالغياب / الغياب الذى أخذها / الغياب الذى تركنى فى البرد وحيدا / أتمرى أحيانا بالسراب / فلا أرى غير المرايا فى المرايا / مرايا من سكون / مرايا من خراب / أدخل فيها / فينهار على سقف السماء / أنهض من حطامى /

أبحث فى الغياب عن غيابها / فلا أراها / أخرج منى لأستلقى على صدر قصيدة من ماء / الماء وحده يجمعنا / الماء يوحّد أسرارنا / سأغيب فى الماء / فى الماء الذى كنّا فيه / الماء الذى أغرقنا / الماء الذى وحّدنا / الماء الذى يحملنا من غيابنا إلينا/ الماء الذى بللنا بالوجود/ فانتبهنا.

المرأة

أيْ رجلى / الذى من أجلى بكى كثيرا / كثيرا بكى حتى تفجرت الأنهار حزنا / كثيرا بكى حتى التقينا فى ردهة الماء/ لم نكن من قبل نعرف البكاء/ حتى أقلّتنا يد الخطيئة فبكينا.

أيْ رجلي/ الذى مشى معى حيث شئت / وفعل ما أردتْ / وأكل ما أكلتْ/ وشرب ما شربتْ / حمل عنى ما يتعبنى / حنينَه المطلق / ترك لى / قلبَه المتعب / جعله وسادتى / صدرَه الذى نبتت عليه اللهفة كعشب أخضر / افترشه لى كى أنام.

أيْ رجلى الذى تاه عنى وتهت / الماء يملأ فراغات الكون/ والسديم يبتلع الأشياء / وأنا لا أعرف فى أى جهة تكون أنت.

أيْ رجلى / سيجمعنا التيه الذى فرقنا/ سيجمعنا الرمل والماء / الماء الذى يحمل الكون / فرقنا / وحين نبلل الهواء بدموعنا / يجمعنا.

أيْ رجلى / لا تختبئ العصافير فى شعرى / إلا إذا لمسته / ولا تظللنى الغيمة / إلا إذا حملتَنى بين راحتيك / راحتاك اللتان من ماء وطين / تلتصقان بى / فأدخل فى اليقين / راحتاك / تجلبان المدى إليّ.

أى رجلى يتعبنى غيابك / غيابك الذى كان / غيابك تركنى شجرة عارية / عارية حتى من دمى / دمى الذى أنت فيه / غيابك شتته وبعثره فى الفراغ/ الفراغ الذى يتسع كلما اتسع الصمت/ الصمت الذى يطلع كشجرة فى أصل الحنين.

الرجل

أسمع وقع خطاك فوق الماء/ أى أنثاى / صوتك يملأ الكون بالغناء / أراك ولا أراك /لأنك الذات والمرآة/ العتمة والضوء/ أشعر بك فى قلبي تنامين / تنامين فى روحى / ترتبين حنيني/ أيُّ حنين أشعر به إليك / وأيَّة مسافة تفصلنى عنك / وأيَّة رحلة ستوصلنى إلى وجودى الذى تاه عني/ الفردوس الذى جمعنا / فرقنا.

أيْ أنثاى / التيه الذى شتتنا / سيجمعنا / أنا فى التيه / عنك أفتش / ولا شيء حولى غير الفراغ / والسديم الغامض يغشى رؤياي/ أيْ أنثاى / كالعهن أتناثر / ينثرنى الخوف / ويجمعنى اليقين.

أيْ أنثاى / القرابين سأقدمها للإله كى يجمعنا / تحت حرِّ الشمس سأجلس / دهرا كاملا سأجلس / ولن أطلب من الغمام أن يظلني/ لا لشئ سوى لأن الغمام لا يستدل عليّ إذا لم تكونى.

أيْ أنثاى / أعرف أننى سأهتدى إليكِ/ فيقينى أننا كنا لنلتقى / ولن أضل / يوما عن يقينى

المرأة

أشعر كأنى بين يديكَ / أنام آمنة/ أشعر بك تقترب منى / تمحو المسافة التى تفرقنا / بيقينك تضمنى إلى صدرك الدافئ/ تظللنى بيديك.

أيْ رجلى / أنا فى مسافة عينيك / أقرب منك إليك / وأنت فى مسافة عينيَّ أقرب منى إليَّ/ ارفعْ صوتك كى أسمع نجواك / نجواك التى كنت فى الفردوس تناجينى بها/ الهواء الذى يحمل صوتى / يحمل صوتك لى / قل لي: يا أنثاى الجميلة/ يا فتنتى التى لم أشته غيرها / يا رحلتى التى بدأتها إلى وجودى / قل لي: يا همسيس روحى / واصبر على التيه الذى فيه أنت / سيحملنى حنينى إليك رغم كل الفراغ / الفراغ الذى يحيط بي/ الفراغ الذى سيطفح بحنيننا / قل لي: يا حوائى / كى أملأ الفراغ فى صدرك/ أطلقْ حنينك باتجاهي/ أُطلقُ حنينى باتجاهك / يتكشف السديم الغامض / وأراك / يجمعنا الماء.

أيْ رجلى / لا بد سألقاك / فى رحلة الماء للماء / لا بد سألقاك / استجمعْ ما لديك من الغناء.

الرجل

مرت مسافات عليّ / بخطاى زرعتها / بشوقى جعلتها تخصب/ بحنينى بللت رملها/ رملها الذى صار كتابا من الوجد/ دهور طويلة عليّ مرت / وأنا أدور فى التيه البعيد بروح مرهقة / أدور/ بصبر أشد من صبر البحر / أدور/ لا أعرف كيف أفرح ولا كيف أنام/ ولا كيف أتأمل الأشياء / لا هواء يحملنى ولا فراغ / ولا مكان أريح فيه جسدي/ ولا فضاء أريح فيه روحى / أفسر اللاشيء باللاشيء/ انظرى إلى السماء / وابكى / وسوف أنظر إلى السماء / وأبكى / لعل دموعنا تلتقى هناك/ فنلتقى.

المرأة

بتعب شديد يجعلنى هشةً / أشعرُ / وبحزن عميق كبحر لا قاع له / أمضى / بشوق يفوق هذا التيه / أناديك/ أناديك عبر كل الجهات/ عبر كل الجهات أناديك/ سأظل أنتقل / من مسافة إلى مسافة / لأراكَ/ لن يكبل خطاى / يأس / ولن يقيدنى عن لقائكَ / ملل / ولن يشغلنى عن السير إليك شيء/ سأبلل السراب كى يخلع خدعته/ سأستدل عليك بناى الحلم/ بالمزامير التى تؤوب بها الجبال/ بالخيال الذى ابتكرته من أجلك/ سأنظر إلى السماء وأبكى / أنظر إلى السماء وابكِ / ستحملنا دموعنا إلينا / وهناك هناك نلتقى / سنلتقى.

حوّادم

مسافتنا طويلة وبعيدة خطانا/ ورجاؤنا أوسع من المسافة بيننا/ كلما اتسعت المسافة يقربنا المعنى/ وكلما اتسع المعنى نقترب من أحلامنا/ الوجود بوجودنا / يكتمل / كلما طاف الحنين بنا / ضاقت فجوة الرحلة / وتكاثف الفراغ / واقتربت جهة اللقاء/ فالدموع ملح الوجود / تغسل خطيئة الرحلة / ورحلة الخطيئة / الدموع رحلتنا إلى الخلود / سنبلل الهواء بدموعنا / ليكون من الدموع بحر / فى البحر تسبح أحلامنا / فى الحلم تسكن أرواحنا / بالدموع وجدنا / وبالدموع نلتقى / الدموع ملحنا وصحونا / ويقيننا إلى اللقاء.

اللقاء

عندما فتح عينيه بعد أن نام دهورا سبعة، وقضى فى التيه طويلا، شعر بريح باردة تلفحه، وبحر من الحنين يتلاطم فى صدره قال: الضباب سور يصل الأرض بالسماء، وتشكلت الألوان فيه، وامتدت الظلال.

ثم صمت إلى ما شاء له الصمت أن يصمت، أرسل بصره فى الفضاء الممتد من حوله، فتدلت خيوط من الضوء، أيقظت الكلمات فى صدره مرة أخرى، فالتقفها لسانه، ثم أطلقها كفراشات من الحنين.

وعندما رأى كلماته كخيالات تسبح فى المسافة الغائبة، لها شكل الحنين، شعر بالوحدة التى بدأت تأكل أحلامه، وتملأ أنفاسه، قال:

أبعدنى عنكِ اقترابى، فمشيت إلى خرابى
نهض الليل بيننا فاستباحتنا الروابى
لم يعد لنا ما يسكت اللغة الحزينة
لم يعد ما يملأ القلب هدوءاً
لم يعد لأصابعنا شكل البداية
لم تعد كاساتنا
المسكونة بالرمل تجدى
بعد أن تاهت عن الرمل الخوابى
أبعدنا الوصل
وواصلنا التيه البعيد

كيف لى أن أستعيد الحرف الأول بيننا، والحلم الأول، والشهقة الأولى.

ثم صمت قليلا.. فسقط عليه حزن شديد... لم يشعر بمثله طيلة تلك الدهور، تأمل الكون الذى هو فيه، تحسس الأرض التى يستلقى عليها، فأحس بدفء ذرات التراب، وشعر وكأن قلبا ينبض فى داخلها، بكى حتى أجهش، ضم التراب بكلتا كفيه، ثم ألصق وجنتيه بالطين المعجون بدموعه.. فسكن قليلا، قال:

أيتها الأرض، يا كرة من الصمت والكتمان، يا من أنا منك وأنتِ من أجلى تكورت.. يا أمى التى ولدتنى لكى أكون سيدا عليها، أخرجينى من التيه، كى أبتكر الجهات. أرشدينى إلى السبيل الذى سأكون فيه، فأنا منذ هبطت فى حيرة من أمرى، دهور سبعة وأنا فى التيه، دهور سبعة وأنا أركض فى الفراغ.. دهور سبعة والمدى عليّ يتكاثف، يتماهى فى التيه.. يتشكل فى الفراغ.

أيتها الأرض.. يا سكوننا الأبدى.. يا جرحنا الغائب فى الأزل.. يا أزلنا الرملى.. يا ترابنا الذى نحن منه.. يا نحن التى أنت منا.. يا فضاءنا المتسع بالمجهول.. يا مجهولنا المخيف.. يا خوفنا المتوارى فى أسمائنا. يا اسمنا الأول.. يا مساءنا الذى ما بعده مساء.. يا ضياءنا النازف بالحلم..

أيتها الأرض يا كرة التيه.. يا وجود اللاوجود.. يا سراب الوجود.. يا نافذتنا المغلقة علينا.. يا سرنا.. يا فردوسنا المجهول. يا مجهولنا الفردوسى، أنبتينا مرة أخرى، بللى كلماتنا بأسرارك، وأرواحنا بوجدك، كى نرى، وكى تبصرنا الأشياء ونبصرها..

أيتها الأرض تسللى إلى نبضى.. ادخلى فى صحوة الغيب.. وفى سكرة الصحوة.. واتركينى أتمرى بمائك الأول. كى أبدأ الدخول.

ثم صمت..

لم يطل صمته حتى أحس بصرخة تكاد تنفجر فى داخله.. كاد يطلقها عاليا لتهتز الجبال منها، وتنقلب البحار بأمواجها على الكائنات.. لكنه أيقن أن صوته سوف يتلاشى، فالفراغ يتسع أكثر من نداءاته، فآثر الصمت وهو يتأمل كل شيء حوله بحزن عميق، وشعر وكأن الكلام قد تجمد على شفتيه، وثمة كلام كثير، لكنه لا يستطيع أن يقول شيئا. لماذا يرتبك الكلام فجأة فى أرواحنا، تساءل فى صمته، فأعاده السؤال إليه، ولم يستطع أن يختبر السؤال مرة أخرى فى دائرة الصمت، يقينه أن بدأ الطريق، والطريق التى تبدأ لا بد أن تشير إلى النهاية، لكنه لا يعرف ما شكل النهاية التى يشى بها الطريق.

الأوراق التى تستره أصبحت صفراء متيبسة، وعندما تحسسها غلبه البكاء مرة أخرى فبكى طويلا لأنه فقد آخر صلة له بالفردوس.

حاول أن ينام مرة أخرى، لعله ينسى المأساة التى هو فيها، لكن النوم ودعه إلى غير رجعة، تأمل السماء التى أصبحت بعيدة عنه وقال:

أيتها السماء التى خرجنا منها / كما خرجت منا
أسلمتنا إلى كف الخطيئة / فانكسرنا فوق رمل اليباس
امنحينا مسالك لا تيه فيها / ولا خراب
امنحينا ما يعيد الماء فردوسا إلى هذا التراب
أحلامنا صارت غبارا
الغبار أصبح فسحتنا الوحيدة التى أربكت رؤانا.
الغبار أبجديتنا الغامضة، غموضنا الذى لم نستطع فك أسراره.
أيتها السماء / يا فردوسنا الذى فقدنا / يا حلمنا الذى منه خرجنا / يا رحلتنا إلى التيه دهورا / يا تيهنا الأبدى / أعيدينا إلى بدئنا / ولنبقى فى الجهل أزلا.
أعيدينا إلى لزوجتنا / كى نلتقى ببعضنا
فالأنثى التى هى منى تاهت / وأنا الذى منها تهت
أيتها السماء التى ترانا / وتعرف أى طريق نسلكها
كى نلتقى / أرشدينا سبيلا سويا.
حيرتنا لا تشبهها حيرة
وبكاؤنا لا يشبهه بكاء
وتيهنا لا يشبهه تيها

ثم بكى.. حتى تبلل التراب قرب وجهه مرة أخرى، وأحس بلزوجة الطين ورطوبته.. فانتابته لحظات من الراحة والاطمئنان، وشعر أن البكاء هو الذى يذكره بتكوينه الأول، ويعيد صلته بالفردوس، تساءل وهو يبكي:

تُرى.. هل عجنت أجسادنا بالدموع، لذلك كتب علينا البكاء؟
أم أن البكاء هو الذى يبلل طيننا كى نكون منه مرة أخرى؟
حاول أن ينهض فشعر بالتعب يقعده، تمدد مرة أخرى ما لبث أن تحامل على نفسه ونهض، وصرخ صرخة مدوية مزقت الصمت، فاهتزت مياه البحر، وماجت، تناهى إليه صوت الأمواج المتلاطمة على الصخور، عندها تلاطمت أمواج الحنين إليها، وتمثلت له صورتها وهى تبكى، وتسأله: إلى أين نمضى، وكانت تخاف التيه والضياع، أغمض عينيه، وتفجرت الذكريات فى نفسه حمما، لا تستطيع كل مياه البحر أن تطفئها، رأى كل شيء لحظة البكاء الأبدى.. استعاد لحظة الهبوط من الفردوس إلى التيه، سمع صوتها مرة أخرى:
- إلى أين تمضى ؟
وسمع صوته يقول لها:
- لا خيار لنا سوى هذا الخيار.
أيقظتنا المعرفة من خلودنا / فهبطنا فى الضياع..
ورغم قلقها وخوفها إلا أنها قالت له:
- ولكن المعرفة خلود..
فتأملها من بين نهر الدموع المتلاطم على وجنتيه:
- أى خلود ونحن نهبط من معرفتنا المطلقة إلى برزخ النهاية.
لم نكن نعرف التيه ولا النهاية / فعرفنا
لم نكن نعرف الخوف / فعرفنا
لم نكن نعرف السراب / فعرفنا
لم نكن نعرف الغياب / فعرفنا
لم نكن نعرف الخطيئة / فعرفنا..
قالت له :

ـ لم نكن نعرف اللذة / فعرفنا
لم نكن نعرف الوجود / فعرفنا
لم نكن نعرف الرحلة / فعرفنا
لم نكن نعرف الحلم / فعرفنا
لم نكن نعرف الوصل / فعرفنا
لم نكن نعرف السر / فعرفنا
نحن فى طريقنا إلى خلودنا.
قال:
ـ نحن فى طريقنا إلى نهايتنا
نهايتنا التى لم تكن لتدركنا فى التوحد
نهايتنا التى أراها مرسومة بحبر الدم، وحبر الألم، وحبر الوقت.
نهايتنا التى هى أقرب مما نتصور، نهايتنا التى تلتصق بالبداية.
ثم ران الصمت بينهما.. بعدها غابت صورتها من أمامه فناداها:
أيتها الأنثى التى كانت منى / لكى أكون منها
بللى التراب بدموعك، وادخلى فى رعشة التراب، ارفعى الحزن المتاخم حول وجهك
ها أنا أبدلت حزنى بالكلام
أيتها الأنثى / ادخلى فى مدارى الذى أدور / واحملى معى ما لا طاقة لى على حمله وحدى ولو حاولت.. لاطاقة لى على ابتكار لغة أخرى سواك، فأنت لغتى التى ابتكرت، وأنت من أجلى كانت، ومن أجلها كنت.
تعالى لنلتقى معا على جانب الأرض / نزرع بذور الوجد فى الأرض / أيتها الأنثى/ لينبت منها بلح الخلود
وصمت قليلا حتى سمع صوتا من جانب البحر حرك الحنين فى نفسه، نسى التعب والإرهاق، ودهور التيه، وانتفض واقفا، فغاصت قدمه فى الطين قليلا، سحبها وتحرك باتجاه البحر، شعر أن المسافة واسعة جدا عندما رآها تستحم فى تيار الهواء، خلف كل الألوان الهاربة من ذاكرة السماء.

تسمر فى مكانه، ينظر إليها، كانت بعيدة عنه وهو يقف على شاطئ الخوف، بقى غابة من الوقت يتأملها بدهشة وحزن وشوق، تجاذبته المشاعر بين أن يتجه إليها وبين أن يعود إلى مكانه لينام، لكنه استبعد الاحتمال الثانى فهو لم يصدق أن رآها، ولكن استبعد أيضا الاحتمال الأول خشية أن يتوه فى الماء، وقد لا يصل إليها.

دخل فى حيرة من أمره، وهو الذى يعرف أن الحيرة كتاب لا تأويل له، وعندما التفت إلى آثار قدمه فى الطين، وجدها قاسية كالصخر، أيقن أن لا سبيل له إلا بالاتجاه نحوها، وإلا سيمسى حجرا بعد أن تنضب أنهار البكاء فى دمه، وضع كفه حول فمه وناداها:

- عبرت سبعة بحار / ونمت سبعة دهور / وبكيت حتى تبلل التراب وأصبح طينا / وصمتُّ حتى أصبح الطين حجرا / أما آن لنا أن نلتقى؟

فرحل صوته بعيدا ثم عاد إليه:

- عبرت سبعة بحار / ونمت سبعة دهور / وبكيت حتى تبلل التراب وأصبح طينا / وصمتُّ حتى أصبح الطين حجرا / أما آن لنا أن نلتقى؟

وبين الصوت والصدى كان يصغى إلى صمته قليلا.

فصوته يستغرق غابة من الوقت ليذهب وغابة ليعود، وكان عليه أن ينتظر مثل ذلك حتى تجيبه.

وعندما سمعت صوته وضعت كفيها حول فمها ونادت:

- عبرت سبعة بحار / وغصت سبعة دهور / وبكيت حتى ارتفع موج البحر وهاج / أبحث عن مفتاح الخلود الذى رميته فى اليم / اقترب أيها الرجل الراحل فى التيه / فأنا أحتاجك / أحتاج إلى ما تحمل من أسرار حتى نزرع الوجد فى جانب الأرض / اقترب فالحنين جسر سيختصر المسافات / ويختصر الدهور.

فرحل صوتها ثم عاد إليها:

- عبرت سبعة بحار وغصت سبعة دهور...

كان عليه أن ينتظر غابة أخرى من الوقت حتى تقترب منه فيحدثها عن قرب، ويشم رائحة جسدها التي تذكره بفردوسه المفقود. جسدها الذى أنشئ من لوعته، فكان ذاكرته التى استيقظت فى ردهة الحلم، جسدها الذى تعلم الأسماء كى يفسر أسماءه، وتعلم أبجدية الضوء كى يراه فى تراتيل الضياء.

وبدأ رحلة الاقتراب من البحر أكثر وبدأت هى رحلة الاقتراب من اليابسة، حاملة فى شعرها الأمواج، وحاملا على وجهه أثر الطين، ولما بدأت تقترب ورأى جسدها المتألق، لفحته الريح فنزعت عنه الورقة المتيبسة، وبدأ يشم رائحة جسدها، كاد يغشى عليه وهو ينظر إلى نورها المبهر، وكأنها اغتسلت فى بحر من النور سبعة دهور، لكن شوقه إلى لقائها جعله يقاوم الانهيار، مد يده بهدوء وقال لها:

- تعالى يا ربيبة البحار نرشف قهوة الحياة.

قالت له وهى تدفع موجة عن شعرها:

- أخشى أن أصيبك بالطوفان، فمن يعصمك من طوفان سحري؟

قال لها:

- لا عاصم لى منك سواك.

مدت له خصلة من شعرها، حتى كادت تلامس وجهه فلفحته رائحة عطرها الفردوسى فقال:

- ما زلت تحتفظين بالفردوس فى خلايا جسدك، أما أنا فرحلتى الطويلة كادت تعيدنى ترابا تذروه الرياح كيف تشاء.

فابتسمت وقالت له:

- يا ربيب الطين، لم لا تشرب معى كأسا من عصير الغيم نخب لقائنا فتستعيد رطوبة الفردوس فى دمك، وننتشى فى غفلة الوقت الذى أتعبنى كما أتعبك.

أمسك بطرف خصلة شعرها وضمها إلى وجهه وراح يشمها بنهم ثم قال:

ـ أخشى أن أتلاشى فى الماء فتمتصنى أزمنة القاع هناك، فتحيا على جسدى أعشاب الظلام.

قالت :

ـ وتشدنى إليك كل مساء فنغفو تحت سكرة الأمواج.

قال :

ـ زمن البحر يثقل فوق صدرى، أخشى إن أبحرت أكثر أن تثقل موازين الخطيئة فى دمى فتشدنى الأغوار إليها فأغوص، تشدنى المتعة فأغوص، تمتلئ الروح بماء البدء فأهبط، ثم أسقط حيث يشدنى جسدك بعطره الفردوسى وأنا أخشى السقوط.

فتنهدت ثم قالت:

ـ ألم نهبط معا من قبل؟

ـ وفرقنا الفراغ وسبعة بحار وسبعة دهور.

ـ فرقنا الخوف من الخطيئة.

ـ ولكن طهرتنا الرحلة.

ـ ما زلت تحمل فى دمك الخوف، أما أنا فطهرنى الغوص فى عمق البحار.

التفتت إلى الخلف فرأت أمواجا عالية تقترب منها قالت له:

ـ البحر يناديني.

ـ وأنا أناديك، تعالى نشرب قهوة الحياة فنكون.

نطلق صرختنا فى الهواء فتحملنا الأرض على خضرة عشبها، تطهرنى يداك الطاهرتان، فأخرج من غبار الرحلة، وأستعيد رائحة الفردوس.

اقتربَ فى البحر أكثر لكنها بدأت تبتعد، ولم يستطع أن يتبعها لأنه وصل إلى مكان يغوص فيه من يصل إليه إذا لم يكن مهيأ لذلك، وعندما خشى أن يغوص فيدخل فى تيه أبدى، بدأ يتراجع وهو ينادى عليها، لكنها كانت تقول له:

ـ البحر يغرينى باقترابه منى وأنت لم تفعل ذلك، البحر قادم إلى.

ـ وأنا ؟

ـ إذا بقيت هناك، فسوف أبقى هنا، بل سوف أذهب لأعماق البحر، لأمنحه رغبته التى يتجاوز بها سحر أمواجه.

ـ وكيف سنلتقى ؟

ـ هكذا أنا من هنا، وأنت من هناك، تنظر إلى اليم وتناجينى كلما اشتقت إلى، وأنظر إليك وأناجيك كلما اشتقت إليك. كلٌ منا يقرأ فى كتاب أشواقه ما يقرأه الآخر.

ـ ولكنى مدمن على الشوق ولم تعد لى طاقة على الفراق ولا الإبحار، كأنى أغوص فى بحر الحيرة مرة أخرى.

ـ لا سبيل لك إلا إذا غامرت فى بحرى، وجئت إليَّ فالبحر يحمل أمواجه ويأتى إليَّ ليحملنى إلى حيث أريد، تعال إليَّ وسأجعل البحر يحملنا معا إلى حيث نريد. فندرك أسرارنا معا، كما ندرك أسراره، فنشهق بالحياة كما لم نشهق من قبل.

لم يستطع أن يغامر فى بحرها، بل لم يشأ ذلك لأنه يخشى من تيه آخر كما تاه من قبل عندما استمع إليها. بقى ثابتا فى مكانه ثم بدأ يتراجع باتجاه اليابسة، نظر إلى الأعلى وهو ينفث أول سحابة من دخان الحزن، وأحس بنفسه يغيب فى المسافة الشاسعة، ناديته لم يسمع نداءها، فحملت فى شعرها الأمواج وابتعدت عنه بحرا من الوقت، لم يشعر برحيلها، كان غارقا فى التأمل، يتأمل السماء التى ابتعدت عنه كثيرا، أحس برغبة لأن

يطير إليها، وما إن انتقلت تلك الرغبة إلى روحه حتى شعر بجسده يخف قليلا قليلا وينساب فى المسافة، ويحلق.. حلق أكثر فأكثر قال:

أيتها السماء

ليتنى أتلاشى فى شساعتك

امنحينى الطريق إليك

فأنا مذ غادرتك أدركنى اليباس، وأدركتنى الحيرة التى لا تأويل لها.

أحس وكأنه جزء من الهواء، ولم يعد يشعر بجسده على الإطلاق، مد يديه فانسابت الكواكب من بينهما كالفراشات، تراءت له الكواكب والمجرات، لم يكن يعرف من قبل أى كون كان قبل أن يهبطا، لكنه الآن يرى ما لا يصدق، فى البدء ظن نفسه داخلا فى حلم لا نهائى، لكن المجرات التى عبرها، والكواكب التى لامسها، جعلته فى حالة يقين مما يرى.

أراد أن ينفث دخان الخوف من جسده، علّه يتابع رحلة العودة، لكنه أحس بإحساس غريب حيث تلاشى جسده وتناثرت خلايا روحه تدور حوله كالأقمار.

حاول أن يشدها إليه لكنها انفصلت عنه منطلقة باتجاه الأجرام لتمتص منها قدرة الدوران والإشراق، فقد المقدرة على المتابعة، وفقد الرغبة فى العودة إلى السماء، إلا أن الحيرة أطبقت فكيها عليه وهو يدور فى الفراغ، فإلى أين يذهب فى هذا الكون العجيب، وهو ما زال معلقا لا هواء يحمله إلى السماء، ولا أرض تناديه، وروحه التى كانت تغادره كل ليلة دون أن يعرف أين تذهب، لتعود وقد امتلأت إشراقا، لم تعد إليه، ها هى تنسل منه وترحل إلى مجراتها الأولى. عندها بكى وبكى على ما فرط من دهور سدى، فقد كل طاقاته، ومقدرته بعد أن فقد ذرات روحه التى لم تعد إليه، أحس كأن غيبوبة اللاوجود قد أغرقته فى غيابها، تمنّى لو ينكمش الفراغ كى تشده الأرض إليها.. تذكر حينها ربيبة البحار، وأراد أن يناديها، حرك كفه

ليضعها على فمه ويصيح لكنه لم ير شيئا أصبح يشبه الهواء، شعر بالحزن يتراكم فى صدره كالأمواج، وكان يوقن أنه فى طريقه إلى الهلاك، قال والهواء يخترق خلاياه:

ـ لو أنكِ أتيت إليَّ لشربنا معا قهوة الحياة، واستوينا فى صبغتنا الأولى، ولم أدخل فى الغواية مرة أخرى، ولم تدخلى فى قلق الماء، يا لك من عنيدة، تراك الآن فى أى بحر تموجين؟

أحس بشيء يلامس جسده الشفاف، انتبه فرأى خصلات شعرها متناثرة وهى تسبح معه فى الأنواء الغريبة معلقة بين السماء والأرض قال لها:

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا؟

ـ أغوتنى السماء بجمالها وشعرت بحنين إلى الفردوس فتأملتها حتى شعرت بنفسى أطير وأحلق، فى البدء خلت ذلك حلما، لكنى ما لبثت أن دخلت فى اليقين مما أرى، لو أنك غامرت فى بحرى، لما دخلنا فى هذا التيه الذى لا نعرف أبعاده.

وسألته:

ـ وأنت ما الذى أتى بك إلى هنا؟

ـ حل بى ما حل بك، أخذنى التوق إلى ما لا أرى.

مدّت يدها، مدّ يده أحس بطاقة كبيرة تعود إلى جسده، وبدأ يرى جسده، وبدأ جسدها يستعيد غوايته، التى انسلت إلى جسده، لكن المسافة ما زالت واسعة بينهما قال لها:

ـ أية خيبة نحن فيها؟

أى أنثاى التى تسبح معى / اقتربى أكثر

قالت:

أى رجلى الذى يسبح معى / اقترب أكثر

قال:

سبعة بحار وسبعة دهور وما زلنا نسبح فى الفراغ، ومازال الفراغ دليلنا الوحيد فى الفضاء.

سأخترق الذى لا أراه / ويجثم فى المسافة بيننا

وليس يشبهه سواه

ربما لا يكون الهواء / وربما لا يكون المساء

ربما يكون شيئا غامضا

يجتاحه الوجد فيكشف عن هواه

ربما أعرفه ولكن لا أراه

سأخترق الذى لا أراه

كى أرى وجهى تماما عندما أمتد فى رؤياه

فأضم منفاى وأدلف فى الفراغ لأضيع فى منفاه.

قالت له:

- قالوا: من ضرع الخطيئة قد رضعنا

قلت: ما كانت خطيئتنا / فضعنا

لى صرخة لا تنطفئ

لا ينطوى فى سرها البرد

يا أيها الممتد / إلام تمتدُّ

قد ضاع فيك الحد

واستوحش المدُّ.

ثم قالت له بحزن وندم:

- ليتنى جئت إليك.

قال لها:

- ليتنى جئت إليك وليكن الطوفان.

ـ لن تفيدنا الأمانى والندم.

ـ ولا الذكريات.

قالت له:

ـ فلنحاول ثانية.

ـ لا فائدة من المحاولة.. خابت بنا السبل، وانقطع الرجاء، سنبقى فى الوحدة المخيفة نسبح فيها كما تشاء، فيما لا نشاء، قد نتلاشى، ولانعرف سبيلا لنا، إنها خطيئتنا الثانية التى لا نعرف السبيل إلى غفرانها.

وبكى

فبكت

قالت له:

ـ كنت أحمل فى حقائبى الكثير من فردوسنا لكنها تاهت منى ولا أعرف أين أصبحت، ربما انتشلتها موجة وغاصت بها فى الأعماق وها أنا بلا حقائب ولا أسرار.

وبكت

فبكى

وعندما طال بكاؤهما أظلتهما غيمة تكاثفت من دموعهما قال لها:

ـ إنها سحابة الخلاص تمسكى بها

فتمسك الاثنان بتلك الغيمة وهما يبكيان فأثقلت حتى هبطت بهما إلى الأرض.

ناما دهرا كاملا فاستراحا من عناء التيه والضياع، فتحت عينيها صباحا فرأت البحر قربها. اقتربت منه. خافت. وتراجعت قليلا.. حاولت ثانية لكنها خافت وتراجعت.

نهضت، امتطت صخرة عالية، لتطل على ذكرياتها معه. لعلها تستوى مرة أخرى فى ظله.

فتح عينيه فرآها تحاول العودة إلى البحر واقفة على صخرة قريبة من أمواجه، سمعت نداء فالتفتت إلى صخرة خلفها ظنتها مصدر النداء فغشيت وسقطت، تلقفتها أمواج البحر ثم قذفتها بعيدا، سحب جسده قليلا قليلا حتى صار قربها، انتظر غابة من الوقت حتى استيقظت فرأت نفسها قربه قال لها:

- أية مغامرة أنت أيتها الأنثى ؟

- إنه القلق وليست المغامرة.

- القلق على أى شى ؟

- على مصيرنا ووجودنا.

- ألم نعد إلى الأرض التى كُوِّرت من أجلنا؟

- عدنا ولكن لنفترق، لأننا من غاشية الفراق كنا.

- بل لنستدل إلينا، فنلتقى.

- كم أنت متفائل، وحقائبنا جميعها فقدناها فى البحر.

- وكم أنت رائعة، سنستعيدها معا.

مد يده إليها حتى لامست يدها، فأمسكها بقوة، وشدها إليه ثم ضمها إلى صدره أحاطها بذراعيه قال لها:

- كم من الدهور مرت حتى التقينا، وكم شهقنا فى الفراغ، والفراق، حتى انتبهنا إلينا.

- ولكن شبح الفراق أراه أمامى.

- لكننا التقينا وما زال لجسدك عطره الفردوسى.

ابتسمت:

- وما زالت ذراعاك قويتين رغم رحلة التعب الطويلة.

- أشعر بحنين إلى الغناء.

- كذلك هى رغبتى.

وضعت رأسها على ذراعه قال لها:

- أنت ربيبة الدفء الأبدى.

- وأنت ربيب الوجود.

ضمته إلى صدرها، فضمها إليه بقوة، وبدأت تغنى أغنية الوجود، وناما فأظلتهما سحابة شفيفة.

حمل الهواء صوتها وغاب ثم عاد الصوت

بعد أن دق أبواب الجهات:

للريح أغنيتى للبحر ذاكرتى

طالت دهور التيه

فاستوحشت لغتى

ما أخطأت كفاى

لأنام فى منفاى

بحرا وسبعة دهور

دهرا وسبعة بحور

ضيعت أشرعتى

عادت بنا المرساة

واستفحل الأمل

فيك الغرام صلاة

يا أيها الرجل.

ناداهما المنادى من جانب الحلم:

- كونا الآن البداية والنهاية، رحلة الرمل الذى تغفو على أوجاعه الصحراء.

كونا نداء من ضجيج البحر من تلويحة الفراغ الذى ما زال يسكن فيكما كى يستدل إلى تأويله.

النهر الأزرق سيحمل لكما كل الحقائب كى تعرفا. كونا من الآن على هذه الأرض السادة عليها.

شعرت بنهر أزرق يخرج من أصابعها / شعر بنهر أزرق يخرج من أصابعه، وهو فى غاشية الحلم، فى الحلم قالت:

- أيها النهر الأزرق الذى انسل من أصابعى املأ الفراغ بيننا.

فى الحلم قال:

- أيها النهر الأزرق الذى انسل من أصابعى املأ الفراغ بيننا.

فى الحلم قالا:

- أيها النهر الأزرق الذى انسل من أصابعنا املأ الفراغ بيننا

وكان نهار فاستيقظا، كانت كل الحقائب قربهما يضمهما نهر أزرق من الحلم اللانهائى.

البداية

نظرا حولهما، والصمت صاف فوقهما، كانت المسافات شاسعة، والهدوء مطبقا على جميع الكائنات، حاولا أن يقرآ فى الصمت ما لم يتح فى الكلام، كان كلٌ منهما يشف عن الآخر، كأنما وجد الروح مرآة لروح الوجد، قالت له:

ـ نمشى ؟

قال لها:

ـ نمشى

ومشيا حتى إذا اشتد عليهما الحر وأدركهما التعب، أخرجت غيمة من حقيبتها كانت قد حملتها معها من الفردوس، نشرتها فوقهما، فأظلتهما، حتى وصلا إلى مكان تتكاثف فيه الأشجار قال لها:

ـ إذا لم أخطئ فهذه اسمها غابة.

قالت له:

ـ انتظر حتى أتأكد من ذلك.

وأخرجت من حقيبتها لوحا كتب عليه أسماء الأشياء، فاستغرب وقال لها:

ـ وهل حملت معك ألواح السماء كلها.

ضحكت وقالت :

ـ خشيت أن ننسى شيئا فتتوه منا الأشياء، وتخفى أسرارها، ونحن دون دليل فلا نعرف ما الذى نفعله. وفى الوحدة لا بد من دليل، ولا دليل لنا سوى ما أنشئ فينا، وأنشئنا به، فإن لم نستدل على الأشياء بما وقر فى نفوسنا، استدللنا عليها بما نسخ فى الألواح.

فابتسم وقال:

ـ لا يفوتك شيء.. كيف لم يخطر ببالى كل هذا، فأنت لست فتنة فى الجمال، فحسب، بل فتنة فى المعرفة.

تأملت اللوح وقالت:

- نعم اسمها غابة

دخلا الغابة، وجلسا تحت إحدى الأشجار الكثيفة، فأحسا بالراحة، والاطمئنان.كانت السكينة طائرا يشف كما الهواء تحوم فوقهما.

تناهى إلى سمعها صوت خرير مياه قريب قالت له:

- أشعر بالعطش، ألا تشعر بالعطش أنت أيضا؟

- تكاد تجف خلايا جسدى من شدة العطش، سأذهب وأحضر لك بعض الماء العذب. آه كم يحزننى ذلك الوقت الذى كنا فيه فى الفردوس حيث لم نكن لنجوع ونعرى، ولا نعطش ونضحى. ولكنها المشيئة كى ندرك سر ما كنا فيه، وكى نعرف سبيل الخلاص بأنفسنا.

ثم نهض ومضى يبحث عن مصدر الماء، كان يمشى بحذر باتجاه النبع، الذى كان يستدل عليه بسمعه، إلا أن أمرا غريبا جعله يقف فى مكانه دون أية حركة، كانت أصوات مختلفة تقترب منه، ظن للوهلة الأولى أن كائنات أخرى تشبهه تسكن هذه الأرض، لكن استبعد هذا الظن، لأنه على يقين أن الأرض قد كُورت من أجله ومن أجل زوجه فاحتار فى أمر هذه الأصوات، فكر ألا يعير ذلك أى اهتمام ويمضى، فالله لا يضره، وسوف يحميه من أى عارض أو مفاجأة.

تسمّر فى مكانه وهو يرى جمعا من الكائنات الدابة والطائرة والزاحفة قد التف حوله.. كاد يولى مدبرا ولم يعقب بعدما ملئ خوفا ورعبا، إلا أن الصوت جاءه من الغيب:

- لا تخف ولا تفزع.. كل ميسر لما خلق له.. وكما أن الأرض تكورت من أجلك، وبأمر المشيئة تدور حول نفسها كى لا يكون عليك النهار سرمدا، ولا الليل سرمدا، كذلك هذه الدواب كانت، فهى جميعا طوع أمرك.

فانفرجت أساريره واقترب من تلك الكائنات. خطر بباله سؤال:

- منذ متى وهذه الكائنات تدب على هذه الأرض؟

فجاءه الجواب من الغيب:

- منذ أن كورت هذه الأرض، بُثَ فيها من كل دابة.

اقترب منه طائر جميل وقال:

- أنا الهدهد يا سيدى، أتكلم كما تتكلم، وسأكون ترجمانا بينك وبين هذه الكائنات، وسأكون رسولك إلى أى مكان فى هذه الأرض، فقل ما تريد وسيعمل الجميع ما تشاء، الجميع طوع أمرك وكان لأجلك.

فسأل الهدهد:

- وهل كان مَنْ يشبهنى من قبل؟

- على هذه الأرض أنت وحدك تشبه نفسك، لا يوجد ولم يكن من يشبهك من قبل.

فسأله:

- قلت على هذه الأرض ؟

- نعم يا سيدى.. على هذه الأرض، لأننا من قبل كنا على أرض تشبه هذه الأرض لكن تفوقها حجما وسكانها بلغوا من المعرفة ما لم تبلغ كائنات قبلهم، وهواؤها يختلف عن هذا الهواء.

- وهل كان سكانها يشبهونني؟

- كان عليها كائنات فيها شبه منك وأُمرنا أن نكون فى خدمتهم كما أُمرنا أن نكون فى خدمتك.

- وأين آل مصيرهم ؟

- كان مصيرهم أسوأ مصير.

- ولماذا، وما السبب الذى أدى بهم إلى أسوأ مصير؟

- جحدوا وما شكروا، وتجبروا وأفسدوا، وعصوا وطغوا وضلوا عن الحكمة بما عرفوا فأوقعهم الضلال فى الكبر، والكبر فى الهلاك، فمادت بهم أرضهم، وابتلعتهم ثم أخذت أرضَهم الصاعقةُ فدكت دكة واحدة وتناثرت، وتناثروا معها، وعدنا منذ ذلك الوقت ترابا كما كنا، وعندما كانت المشيئة أن تهبط على هذه الأرض، تشكلنا بأمر المشيئة فكنا هنا لخدمتك.

كاد يأخذه الحديث مع الهدهد، كما كادت الدهشة تنسيه ما جاء يبحث عنه فقال:

- كدت أنسى زوجتى العطشى، وأنا أبحث لها عن ماء.

فقال الهدهد:

- عد إلى زوجك.. فقط أشرْ إلى الدواب وسأشرح لهم ما تريد وسيكون كل ما تريده لديك.

وما هو إلا وقت قصير حتى عملت الدواب كل لما يسر له، فكانت حفرة قرب الزوج والزوجة ملئت بالماء ووجدا جانبهما الكثير من الأغصان والثمار.

وبعد أن شربت المرأة قالت:

- أشعر بالجوع .

وكان الهدهد قريبا فسمع كلامهما فاقترب من سيده وقال:

- أنا طوع أمركما فما الذى تريدان أكله؟

فابتهجت الزوجة لهذا الهدهد الجميل والمطيع والنشيط قالت:

- لا أعرف.. ولكن لننظر فى اللوح علّنا نهتدى إلى شيء نأكله.

فابتعد الهدهد عنهما حتى يقررا ما يريدان، وأخرجت اللوح وراحت تقرأ أسماء الأشياء فى الغابة، وفى الجو إلى أن وصلت إلى أسماء الكائنات فى البحر فتوقفت وهى تقول:

- ما رأيك ببعض السمك ؟

فقال لها:

ـ ولكن البحر أصبح بعيدا من هنا.

فصمتت

فنادى على الهدهد، فكان بين يديه وهو يقول:

ـ أمرك يا سيدى

ـ هل من كائن يجلب لنا سمكا من البحر

فقال الهدهد :

ما تطلبانه سيكون .

وما هى إلا لحظات حتى حط طائر كبير يحمل فى منقاره الضخم العديد من الأسماك، وضعها بين يدى الكائنين، وعاد إلى التحليق، ونهضت الزوجة تفرش السمك تحت أشعة الشمس.

فقال لها زوجها:

ـ ولماذا تفعلين ذلك ؟

قالت:

ـ كما جاء فى اللوح الذى يخص غذاءنا وطعامنا.. هنا فى الأرض علينا أن نطهر كل شيء بالضوء والحرارة حتى يطيب لنا أكله.

ـ يا لك من امرأة، لست أدرى من دونك ما كنت أفعل. فكما كنت دليلى إلى الفتنة، أنت دليل إلى الحكمة.

ـ لن تفعل شيئا .

وهى تبتسم:

ـ لولاى لقتلتك الوحدة فى الفردوس، فكنت لأنتشلك من الوحدة، ولتعرف أسرار وجودك، و لتخلق ماتصنعه بيديك.

ـ ولكن انتشلتنى من الفردوس!

ـ لأكون أنا فردوسك.

- فى الفردوس كان يأتينا كل شيء بدون تعب.
- ولكننا لم نكن نعرف.
- وعندما عرفنا أخطأنا.
- ولكننا أدركنا وجودنا.
- وفقدنا فردوسنا.
- وما أدراك أننا فقدناه.
- هذه الحقيقة .
- لماذا لا نكون معا الفردوس الذى لم يكن من قبل، ولا يشبهه فردوس فى الوجود.
- يا لك من حواء.. تبتكر بفتنتها حتى الفردوس.
- لأننا عرفنا، كان علينا أن نجنى كل شيء بمعارفنا، وما نجنيه بالمعرفة، سيكون له مذاق الحقيقة، ومذاق الخلود. هكذا شاءت الأقدار.
- ولكننا تهنا كثيرا وشقينا حتى التقينا.
- من يتبعني عليه بالشقاء حتى يشعر بلذة الاقتراب منى.
- سأتبعك وليكن شقائى أبديا.
- يا لكلامك الجميل الذى يفوق الفردوس جمالا.
- ويا لك من رائعة تطيب كل المغامرات من أجلها.

وبعد أن أكلا قالت له:

- سأذهب باتجاه الماء لأغتسل، وعليك أنت الآخر أن تغتسل.

فنهضت، ونهض معها، واتجها نحو الصخرة التى يتفجر منها الماء.

خلعا عنهما أوراق الشجر التى تستر وسطيهما، وتأمل جسدها، وكأنه لأول مرة يراها، فامتلأت روحه بالفتنة قالت له:

- ما بك ؟

قال:

- أتأمل الصخرة التى تتفجر بالماء رغم قسوتها، وأراك تتفجرين بالسحر وأنا أكاد أتفجر بالجحيم.

اقترب منها فقالت:

- ولماذا هذه المقدمات، أيها الرجل؟ أعرف ما يجول فى خاطرك، ولعلك أدركت ما يجول فى خاطرى.

- ليست مقدمات، وإنما أشعر بدمى يتفجر بشيء غريب، فلا أرى غيرك فى هذا الكون.

قالت له:

- هى الحقيقة، فأنا كونك ووجودك، اقترب وادخل فى عذوبة الماء، وليكن نهر أزرق يملأ الفراغ بيننا.

ضمها إليه وراح يسكب فوق جسدها من ذلك الماء، فشعرت بالماء ينساب على جسدها حارا، ثم جلست فوق الصخرة، جلس قربها، وضعت على رأسها بعض أوراق الشجر ذات الرائحة العطرة، ثم سترا وسطيهما بأوراق أخرى، بعدها حملها بين يديه وعاد بها إلى ظل الشجرة التى كانا يجلسان فى ظلها، استلقيا هناك فبدت لهما النجوم والسماء من بين أغصان الأشجار قال لها:

- ألم تشعرى بحنين إلى الفردوس؟

- أنتَ فردوسى.

- وأنتَ ؟

- أنتِ فردوسى.

- هل كنت تجرؤ على الاقتراب منى هناك؟ هل كنت ستشعر باللذة التى تتذوقها قربى هنا؟

- عندما أقترب منك أشعر وكأن كواكب كثيرة فى رأسى تدور، فأدور حتى أتناثر وأتفجر فى دمك.

- كيف كنت ستشعر لو لم أكن معك؟ لو ذهبت فى التيه ولم نلتق؟

- كنت سأتحول إلى صخرة صماء وألتصق بالتراب ثم أعود إليه.

- وأنت ؟

- لم أكن لأفقد الأمل فى لقائك، كنت سأبحث عنك فى كل جهات الأرض حتى أجدك.

- اقتربى منى أيتها الساحرة العذبة

- وجودك سر عذوبتى وسحرى.

- وأنت ربيبة العذوبة.

ضمها إلى صدره وقال لها:

- كونى خلودى وحكمتى إن ضللت، ومعرفتى إن جهلت، ومسكنى ودفئى ويقينى.

- أنا لك كذلك.

وناما طويلا، ولم يستيقظا حتى تفجر التراب تحتهما بالماء والعذوبة فأيقظته قال لها:

- كم مضى علينا؟

قالت:

- لست أدرى، ولكن أشعر وكأن شيئا جديدا قد حدث.

ومضى زمن بنى لها من جذوع الأشجار وفروعها بيتا صغيرا، وراحا كل يوم يجولان فى الغابة، ويطلقان على كل الأشياء أسماءها، ويكشفان مسالكها، فصار لكل الأشياء أسماء تعرف بها، وعرفا ما يأكلان وما يتركان وما يركبان وعرفا ما تنبت الأرض من بقلها وفومها وعدسها وبصلها وقثائها وأعشابها، وكيف يتفجر ماؤها، وراحا يرتديان جلود الكائنات التى يصطادانها لتقيهما من تقلبات الكون.

●●●

قالت له :

- كأنها الرحلة بدأت؟

- أية بداية نجهل نهايتها؟

- لا تفكر بالنهاية، ولتكن دائما فى البداية.. اترك المجهول للمجهول واركب موجة الرحلة.

- ولكن أخشى أن نضل.

- سوف نكشف أسرار وجودنا ولن نضل بعدها.

- كأنك لا تخافين من شيء أيتها المرأة.

- وكيف أخاف وكل ما حولى لأجلى، بل كل ما حولنا لأجلنا فنحن سادة هذه الأرض.

- أنت فاتنة الحياة.

أيتها المرأة التى كانت لأكون.

- أيها الرجل يا بدايتى ومنتهاى، امنحنى قليلا من دفئك أرتديه من برد الوجود.

- أنا فراشك ولحافك، أنا آدمك الذى كان من أجلك.

- وأنا حواؤك التى كانت منك ومن أجلك.

- أنت سيدة على قلبى وروحى، أنت من تؤنسين وحشتى، ومن تمنحيننى اللذة فى لحظات وحدتى، ومن تمنحيننى اليقين فى لحظات قلقى، أنت الرحلة كلها، أنت بدايتى ولن تكونى نهايتى.. أنت صمتى وكلامى، أنت صحوى ومنامى، أنت مسافة الحلم التى تطوى الزمن، ورحلة الزمن الأبدية، يا نخلة فى صحراء روحى، تمنحنى الظل واليقين والطمأنينة.

ويا ماء عذبا فى رحلة تيهى وعذابى، ويا راحتى فى مشوار تعبى، أظلينى بحنانك لأغفو قليلا لعلى أستعيد حقيقة وجودى، علمينى كيف أكون، وكيف أخرج من تيهى الذى يسرى فى دمى، علمينى كيف أصنع الحياة الأزلية، علمينى كيف أصلّى من أجل خلودنا معا.

- أنت أيها الرجل سيد وجودى.. ومسافة رحلتى التى لا تنتهى، سأمنحك الحياة من أنفاسى، وأمنحك اليقين من حنانى، وأمنحك الراحة قربى. أنت الرجل الذى كان لأكون، وكنتُ ليكون، وكلانا يمسك الوجود بيديه..سنمشى فى الطريق إلى الأبدية، كى نطلق الكلمات من كينونتها، لتصبح سحبا من الخيال، ونطلق المعنى كما لم يكن من قبل، ليصبح أزليا، إننا نشيد واحد نطلقه فى هذا الكون الشاسع، نشيد يأخذنا إلى حلمنا، تعال أيها الرجل لأمنحك اللذة التى تريد، لأمنحك الحياة، وتمنحنى الوجود، اقترب كى نصنع وقتنا، ونصنع حلمنا، ونصنع وجودنا معا، اقترب أيها الرجل اقترب، فلدى ما يجعلك تغنى حتى آخر الوجود.

ثم صمتت وصمت ضمها إليه وناما.

جلس قربها صامتا، يتأمل الأشجار والكائنات، يتفكر بالأرض والسماء، يحاول أن يرتب الأسئلة فى نفسه، ليرتب كينونته فى السؤال، بينما كانت تراجع بعض الأسماء فى اللوح، كى تصطفى من أسرارها ما تشاء، وما إن انتبهت إلى شروده حتى وضعت اللوح الذى بين يديها جانبا وسألته:

ـ ما بك؟ أراك شاردا، وكأن شيئا عظيما سوف يحل علينا، لماذا أنت قلق، فالقلق يربك السكينة، منذ أن استيقظنا وأنت على غير عاداتك، كنت لا تفوت لحظة إلا وتكلمنى بكلامك الجميل؟ هل مللت منى؟ أم إنك نادم على ما حدث؟ هل هى الدهشة التى شغلتك فى هذا الوجود، أم إنك تبحث عن أجوبة لأسئلة تمخر ذاتك، فأنا أشعر بك كما أشعر بذاتى، وكما أننى لا أستطيع تفسير ما يتسلل إليّ من قلق أحيانا، لم أستطع تفسير قلقك. لن يكون لنا ما نريد إلا إذا أردنا ما يكون.

التفت إليها بعد أن وضع الغصن الذى كان بين يديه يخربش فيه على الأرض وقال:

ـ كيف تظنين بى هكذا؟ كيف أملُّ منك وأنت من أيقظ فى ذاتى الحياة، لو كنت كما تظنين لما هبطت معك، وكان باستطاعتى ذلك لأنك أنت التى حلمت وعرفت، إلا أننى آثرت الهبوط معك لأن الفردوس بدونك لا قيمة له، وأنا بدونك لا شيء، ومن أجلك تحملت ما تحملت كل هذه الدهور. صحيح أننى قلق، ولكنه القلق الذى يقودنى إلى التفكر بالحقيقة.

ـ إذن لماذا لم تعد تكتب لى شيئا بعد أن كونت أبجديتنا الخاصة بنا؟

ـ الأبجدية التى كونتها كانت من أجلك، ومن أجل أن يقرأ نسلنا ونسل نسلنا ما كتبته لك ليعرفوا كيف يكون الحب.

ـ ألم تكتب لى شيئا ؟ أم إنك كنت تفكر بذلك، أحب أن أسمعك وأنت تقرأ علىَّ من ألواحك الخاصة.

- هناك الكثير مما كتبته، ولكنى مشغول وأشعر بحالة من القلق تتملكنى، ولا أعرف الخروج منها.

- أى قلق ؟

- هناك الكثير الكثير لم نعرفه بعد، ولم نكتشفه بعد، هناك أشياء مازالت مجهولة وقد بدأت أخاف المجهول بعد تجربة التيه الطويلة.

- قل لى بماذا تفكر عسانى أجد له مخرجا.

فقال مداعبا:

- حلولك أعرفها، أخشى أن نتوه إلى ما لا نعرفه، وإلى ما يورثنا قلقا إثر قلق.

- هل تسخر مني؟

ضحك وقال:

- أداعبك، وهل تصدقين كل ما يقال؟

- إذن قل لى ما بك؟

- هناك أمر أفكر به.

- وما هو ؟

- أفكر بذلك الكائن الذى يكاد يشبهنا.

- أى كائن، ألم تقل: لا يوجد من يشبهنا فوق هذا الكوكب، وقد جبت الجهات وأنا جبت البحار ولم نجد ما يشبهنا. فمن أين لك هذه الأفكار التى تربك اليقين فى داخلنا، وتمزق أستار السكينة التى تظلنا.

- لا تستعجلى الأمور إنه حلم.

- فابتسمت وهى تقول:

- قل لى من البداية إنه حلم، يا رجل، كدت أدخل القلق مثلك. ولكن ما يخيفنى أنك تتمثل الحلم، حتى يبدو حقيقة.

- ولكنه حلم غريب وتعرفين أن أحلامنا لا تكون من الفراغ، فأنا لا أتمثل الحلم، وإنما الحلم هو الذى يتمثل لنا وجودا خالصا، وتذكرين ما حكاه لى الهدهد عندما ذهبت لجلب الماء.

- وما علاقة هذا بذاك. هل أخبرك ذلك الطائر بشيء لم نعرفه من قبل، ولم يكن فى ألواحنا.

- ستعرفين بعد أن أقص عليك الحلم.

قالت له وهى تقترب منه:

- قبل أن تقص علىَّ الحلم، هزَّ لى جذع الشجرة لتتساقط بعض الثمار نتسلى بها وأنت تقص علىّ الحلم.

ففعل ما طلبته منه، عندها أسندت ظهرها إلى الجذع ووضعت رأسها على كتفه وأنصتت إليه.

فقال لها:

- هل تظنين الحلم حكاية سأحكيها لك كى تنامي؟

- لن أنام. هات، قص علىَّ.

وكان الحلم أول حكاية على هذا الكوكب، فلم يكن من قبل حكايات، وراح يسرد عليها الحلم الذى رآه:

- رأيت نفسى أسير فى الغابة وحيدا، هدَّ كاهلى الهم، واستبدت بى الحيرة، ولف شغاف قلبى القلق، أبحث عنكِ وقد تهتِ منى، انقبضت نفسى، وكأن جبالا من الحزن رست على صدرى، وضاقت علىَّ الدنيا بما رحبت، جلست على إحدى الصخور العالية والتى نبتت على طرف الغابة كشجرة شامخة وأنا أتذكر أحاديثك وكلماتك، وقد ملأنى الحنين إلى الطمأنينة التى كان وجودك يلقيها فى قلبى، حينها أدركت لماذا غامرتُ من أجلك، وأدركت كم من الفردوس فيك، وكم من الأسرار فى عينيك، وكم من الحياة تنهض حين تغنين، وكم من الخلود فى وصلك.

أعددت لوحا من الألواح ورحت أخط لك ما أشعر به، وأناجيك كى تعودى وكلما امتلأ لوح كنت أتركه لك فى مكانه وأمضى إلى مكان آخر، أملأ لك لوحا آخر عساك تجدينه وتهتدين إلىَّ، وإن لم يكن كذلك فليجده أى كائن بعدنا ويرى ما عانيناه ومازقناه من أرق وتعب، وما أحرقنا من أشواق ووله فى التيه.

كنت ألتفت إلى كل جهة من الجهات، أتأمل الأفق وأخاطبك بكلمات عساها تسقط فى نفسك فتحملك أمواج الشوق فى روحك إلىَّ.

فقاطعته وقالت :

- وماذا كتبت لى، أم إنك نسيت؟

- وكيف أنسى سأتيك بذلك فاصبرى ولا تتعجلى.. فما كتبته لك سيكون أول قصائد الوجد فى هذا الكوكب، فلم يكن قبلها من قصائد، فلم تكن من قبل أبجدية، ولم يكن قبلها من كلام، لأنه لم تكن من قبل حواء تشبهك.

قالت وقد امتلأت بالإعجاب والفتنة، مما كاد يربك حديثه وأحواله، وحروفه وهو يراها تكتمل بفتنتها قربه:

- كما تشاء يا أول شاعر فى هذا الكون، ولن يشبهك شاعر فى الوجود، فأنت من ابتكر الأبجدية الأولى، وأنت من ابتكر الخيال، والمجاز، أشعر بكلماتك تتسلل إلى روحى فتنعشنى أكثر من خمر الفردوس ومن لبنه وعسله.

قال لها بعدما تماسك كى لا ينهار على فتنتها كشلال ماء من الشوق والرغبة:

- اتجهت إلى جهة الغرب وقد كانت الشمس تسقط خلف الأفق، وأنا أتابعها بنظرى حتى اختفت تماما فبدأت بنجواى لك:

كحجر فى بحيرة / تسقط أحلامى

كبحيرة فى الفراغ يتلاشى دمى

فى عينيك / المعجزات التى لم تكن بعد
الفتنة التى لم تتشكل من قبل فتنة تشبهها
الغياب الذى أخاف / أنت
الحضور الذى أتمنى / أنت
الجذع الذى أسند جذعى إليه / أنت
نهر الخمر / أنت
التيه الذى يقلقنى / أنت
الفردوس الذى أحن إليه / أنت
الآية التى هبطت على الأرض / أنت
الآية التى لم تكن بعد / أنت
الأبجدية التى اخترعت / أنت
الأبجدية التى لم أخترع بعد / أنت
أيتها المرأة التى كنت لأجلها / وكانت لأجلى
ها أنا أرسل نجواى إلى جهة الغرب / عساها تقع فى نفسك / فتشعل الولَهَ والوجد / كى تعودى
يا أيتها الجهة الغربية
هل عبرت من هنا امرأة / تسكنها الفتنة
تحمل بين يديها المعجزات / والفرح الأبدى
هل عبرت امرأة
تحمل البداية والنهاية / الموت والحياة / الفناء والخلود / الصمت والكلام
امرأة / من أجلك أيتها الجهة الغربية
من أجل أن تشرق شمسك مرة أخرى
امرأة تحمل فى يدها النور والعتمة

امرأة / هبطتُ من أجلها / وتهتُ من أجلها
تحمّلتُ الرحلة الأبدية من أجلها
امرأة تحمل الفردوس فى أنفاسها
إذا أسندتُ رأسى إلى صدرها / أشعر بأننى سيد الكائنات
أشعر بأنى قريب جدا من الوصول / من الخلود / من الأزل
امرأة حكمتها من أجل ضلالى / ومعرفتها من أجل جهلى / ووجودها من أجل وجودى

ثم صمتُّ طويلا حتى لفنى الظلام ورحت أنصت لعلى أسمع نداء منك فأهتدى إليك.. وكنت أناديك فلا أسمع سوى صدى صوتى يتردد فى الفراغ، إلى أن كان ليلٌ، وغيابٌ، وبعد ذلك بانت الشمس من جهة الشرق، فاتجهت نحو الشرق. ورحت أخاطبك بكلمات بعد صمت وتأمل طويلين:

أيتها الجهة الشرقية
يا من يبدأ النور منك / يا من تعيدين الشمس / من بعد أن تسقط فى بحيرة الغياب / يا بوابة البداية / وبوابة النهاية
أعيدى إليّ امرأة
لها شكل الحياة
شعرها يشبه الريح / بل الريح تشبه شعرها
الشجرة الطويلة / تشبه قامتها
الثمرة الناضجة / تشبه نهديها
الخمر الفردوسى / يشبه ضحكتها
البحر الصامت / يشبه عينيها
الموج المرتفع / يشبه هدوءها
لا يشبه جسدها شيء
ولا تشبه فتنتها فتنة

إنها المرأة الوحيدة / التى كنت من أجلها
أيتها الجهة الشرقية
أرشدينى إلى مكانها
فلقد أدركنى التعب / وشارفت على الهذيان
الدهور التى تُهنا خلالها / تكفى لكى نلتقى
الدهور الطويلة / تكفى لكى لا ننتوه بعدها
الدهور الطويلة / أرهقتنا وأقلقتنا
أيتها الجهة الشرقية
أشرقى فى عينيها / كى ترانى
وأرشيدها إلىَّ / وأرشدينى إليها
الدهور الطويلة / تكفى كى نلتقى إلى الأبد
إلى الأبد لا نضل بعدها
أيتها الجهة الشرقية
امرأة تحملنى فى نفسها / وأحملها فى نفسى
أرشدينى إليها

ثم صمتُ وانتظرت، عسى أن تخرجى من الشرق فيأتى النهار فى غير موعده، ولكن كانت خيبتى كبيرة عندما لم أر شيئا، ولم أسمع نداء فاتجهت إلى الشمال، وبعد تأمل وصمت طويلين خاطبتك بكلمات:

يا أيها الشمال هل شاهدتها / تائهة كالخيال
أجبنى يا شمال
إذا رأيتها / فدلنى على الطريق
لأننى بدونها أمشى إلى الزوال / يا أيها الشمال
امرأة

لا أستطيع قولها / امرأة تختصر الأبجديات جميعا / امرأة ظلٌ فى الحقيقة / وحقيقةٌ فى الظلال

امرأة / بكل ما يقال

امرأة كانت على ذراعى تنام / أحكى لها الحكايا / ولا تنام

يا أيها الشمال

الصخرة فى قلبى تمتد / والحنين يموج كبحر التيه

وأنا تائه بين الجذر والمد / يتعبنى الضلال

يا أيها الشمال

الغرب لم يرها

والشرق لم يرها

وأنتَ / يا أيها الشمال

يا أملى قبل الأخير

يا قشة الغريق

أنا أغرق فى التيه / بدونها

يكاد يدركنى المحال

أنا أنتهى إلى التلاشى / بدونها

لأنها سبيلى الوحيد إلى الحياة / سبيلى الوحيد إلى الكمال

ثم صمتُّ طويلا ورحت أنتظر عسى أن تخرجى من الشمال إلىَّ ولكن الصمت كان مطبقا على الكون، فالتفتُّ إلى الجنوب وبعد صمت وتأمل طويلين خاطبتك بكلمات:

يا آخر الجهات / يا أيها الجنوب

لا بد أنها تاهت باتجاهك

لا تقل لى / إنك لم ترها

امرأة تغسلها الطيوب

وكل ما فى الكون إليها يؤوب
امرأة أذوب بقربها
وببعدها أذوب
يا أيها الجنوبُ
لا بد أنك شاهدتها
جالسة على صخرة وحيدة
وصوتها ينادى
عليّ ينادى
على رَجُلِها / ينادى
رجلها الذى هبط معها / وتاه معها / وغنّى معها
كى تنجلى الدروبُ
وكى تفك غيبها الغيوبُ
لا بد أنك / تعرف مكانها
مكانها الذى هى فيه
دلنى عليه / يا أيها الجنوب
يا أملى الأخير
إن لم تكن قد رأيتها
سيغرقنى البكاء / ويحملنى الفناء / وأسير بلا جهة فى هذا الكون
وحيدا سوف أبقى / وحيدا سوف أفنى / تقتلنى الذنوبُ / يا أيها الجنوبُ
امرأة بدونها
تختفى كل الألوان من هذا الكون
يتوقف الهواء / وتصمت البحار / وتغور مياهها / وتنطوى الأنهار على نفسها وتموت

بدونها يلفنى الغروبُ
بدونها / لا تغنى الطيور
ولا يتحرك شيء فى هذه الأرض بالحياة
لا شيء ينبض بالحياة / بدونها
هى الخصوبة
هى الوله الذى لم يكن قبلها
هى التى تفيض بالوجد قربها القلوبُ
امرأة هى كل ما في هذا الكون
إذا وطأت أرضا تفجرت بالعطور
وإذا تنفست هواء / تنتشر رائحة الفردوس فى الكون
وإذا اقتربت منى / يتفجر نهر أزرق من الحياة
كأنها الخلود فى الخلود
والمجاز والوجوبُ
امرأة بدونها لا أكون
يا أيها الجنوب
لا بد أنك رأيتها
يا أيها الجنوب
يا أيها الجنوب

وكانت الخيبة الأخيرة فرفعت رأسى إلى السماء وبكيت حتى سمعت صوت أقدام من بعيد، لم أكن أعرف تماما الجهة التى يأتى منها صوت الأقدام، ولكن أنصتُّ حتى اقترب الصوت، ولم يمض وقت طويل حتى بدا لى كائن قادم نحوى، نصفه العلوى يشبهنى ونصفه السفلى يشبه باقى الكائنات، كان يمشى على أربع.

فى البداية شعرت بشيء من الخوف وظننته يحمل خبرا عنك، لكنه نادى علىَّ بصوت هادئ:

- لا تخف أيها الكائن الجديد.

وراح يقترب منى، بينما أنا بقيت جالسا على الصخرة دون أن أبدى أى شكل من أشكال الخوف الذى أشعر به، حتى صار قربى، فشعرت وكأن الخوف بدأ يتسرب من قلبى، رحبت به، ودعوته للجلوس ليحكى لى حكايته، ومن أية بوابة دخل إلى هذا الكوكب وما طبيعة تكوينه.

فأنا كنت على يقين تام أننا الكائنان الوحيدان اللذان هبطا على هذه الأرض، فما من أحد سبقنا إلى هذا الكوكب البكر، وما من أحد يشبهنا، فمن أين جاء هذا الكائن الغريب؟ لكن ما أراه أمامى كاد يخلخل هذا اليقين، جلس وراح يقص علىَّ قصته.

فقاطعته المرأة وقد بلغت بها النشوة مبلغا، بعدما سمعت تلك القصائد، وكادت تلقى بفتنتها على رجلها لتغيب فيه، ويغيب فيها ثم سألته:

• - وما هى قصته؟

فقال لها :

- اصبرى قليلا وسوف أقص عليك قصته.

- سأصبر، هات قص علىَّ، وإن كنت أتمنى لو أن هناك جهات لا تنتهى

- لماذا ؟

- كى تتابع قصائدك ومناجاتك لى فى الجهات إلى اللا نهاية، لأننى تنفست كل طيب ومسك وعنبر الفردوس فى كلماتك، شعرت وكأننى أخرج من ذاتى لأشف كما الهواء، كم من السحر لكلماتك أيها الرجل الشاهق بحبه.

- لأجلك تتلاشى الجهات، فلا نهاية لحبى لك، ولا نهاية لقصائدى التى أكتبها مادمت قربى.. فإن لم تكن سوى الجهات الأربع سأبتكر لك جهات أخرى تليق بحضورك وفتنتك وحبك اللا نهائى.

فابتسمت وهى تسمع هذا الغزل الذى كانت على يقين أنه لها وحدها، فلم تكن فى الوجود حواء سواها، ثم قالت:

إننى أصغى إليك يا رَجُلى العاشق، فاسمعنى بقية الحلم.

فتابع قصته:

- قال لى ذلك الكائن

"لعلك ما زلت بالحيرة والهيبة مصابا، وتدور فى رأسك الأسئلة كالكواكب، ولا تجد لها جوابا، أعرف ما يجول فى ذهنك وما يتخاطر فى نفسك دون أن تبوح بذلك، فأنت تتساءل من أين أنا ومن أين جئت وكيف جئت، وما هو تكوينى، وكيف إلى هذه الأرض وصلت"

فاستغربت من هذه المعرفة التى فاجأنى بها، وكأنه يتحدث بلسان حالى، ويكشف عن أسرار نفسى، فخفت منه أكثر، لكنه تابع الحديث:

- لا تخف من صراحتى وقوة فراستى فمن حقك أن تتساءل وأن تعرف الأسباب، وعن كل سؤال لا بد من جواب، ولكن ربما وجودى يفيدك أكثر من عدمه، وحديثى أكثر من صمتى، ومعرفة قصتى أكثر من جهلها، فأنا أحمل إليك ما لو أمضيت دهورا لما عرفته، وأنت الآن الخليفة على هذه الأرض، وعليك أن تعرف كل شيء عن كوكبك هذا، سأخبرك بحكاية وجودنا، وعلة فنائنا، وسبب بقائى ومجيئى إليك، وسأمنحك مفاتيح المعرفة التى لم تكن بعد.

فقلت له وقد شعرت بأنه يرانى أقل منه معرفة:

- أو تظننى جاهلا، أيها الكائن الغريب، فأنا أعرف كل الأسماء، وأعرف أين تكمن مفاتيح المعرفة. فأنا كما قلت الخليفة على هذه الأرض. ولو لم أكن جديرا بالخلافة لما وجدت.

فأجابني:

- لا يغرنك ما عرفت، فما عرفت لم يصل بعد إلى يقين المعرفة، لأن معرفتك مازالت مغشاة بأسرارها، ولا بد من زمن كى تعرف ما ترى وترى ما تعرف.

قلت له:

أراك ممتلئا بذاتك، فأية معرفة تلك التى لم تكن لى.

شعرت به وكأنه شعر بارتباك لما قلت، إلا أنه قال لي:

- لا تكن عجولا لأن المعرفة تحتاج إلى الصبر، وأنا لا أراك من الصابرين، فكيف تدعى المعرفة إذن، اصبر قليلا فبالصبر وحده تعرف ما تريد، وبدونه تتوه عنك المعارف، ويصلبك الجهل عند أول صخرة صماء.

فأثارنى حديثه وشعرت برغبة لمعرفة ما هو عارف فقلت له:

- سأستمع إليك وستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

فقال:

- لا تقاطعنى حتى أنتهى من حديثى، وإن غاب عنك شيء لا تسأل حتى أنتهى، فربما تريح نفسك من عناء السؤال، لو أكملت السماع حتى النهاية.

قلت له:

- سأصغى لك، ولن أسألك عن أى شيء حتى تحدث لى منه خبرا.

قال:

- ما الذى جاء بك إلى هنا؟

فضحكت وقلت له، وقد تبادر إلى ذهنى أنه يسخر منى لأننى أبديت استعدادى لسماعه.

- الأحرى بى أن أسألك هذا السؤال.

إلا أنه بقى على جديته فى السؤال وقال:

- قلت لك لا تكن عجولا، فى فهم الأمور وأجبنى عن سؤالى فقط.

- ولكنك تسأل ما يجب أن تجيب عنه أنت، كأنك تبادر إلى السؤال لتعفى نفسك من الجواب.

فقال :

- سأوضح لك السؤال، أعنى لماذا هبطت إلى هذه الأرض، ألم تكن قبلها فى الفردوس؟

- وكيف عرفت أنى كنت فى الفردوس؟

- ألم أقل لك إننى أعرف أشياء كثيرة، وما معرفتك إلا ظل بسيط لما أعرف.

- ولكن هذا الأمر يخصنى وحدى.

- من أوحى لك بذلك؟

- هذا الذى حدث.

- الذى حدث لك وأنا أعرف أنك من المخطئين. وأعرف أن الذين يهبطون من الفردوس إلى الأرض هم من المخطئين ولكن لا تقاس أخطاؤهم كما هم يقيسونها، وإنما كما يجب أن تقاس.

- ولكنى هبطت كى أعرف.

- لم تهبط وإنما أمرت بذلك بعد أن حاولت أن تعرف ولم تعرف بعد إلا القليل. إنها الخطيئة التى أثقلتك وليست المعرفة، فلا تحاول أن تخفف عن نفسك وطأة الخطيئة بدعوى المعرفة، لأن هذا سيتعبك كثيرا.

- ما زلت أحاول البحث عن المعرفة. فهى السبيل الذى أنشئت من أجله، وأنشئ من أجلى.

- كأنى أرى أرضنا مرة أخرى وأرى ما سوف تؤول إليه.

- ماذا تعنى ؟

- ألم تصادف كائنات قبلى هنا؟

- بلى وقد تحدثت إليها.

- وماذا أخبرتك؟

- أخبرنى الهدهد أن الكائنات التى معه كلها خلقت من أجلى، ومن أجل خدمتى كما كانت من قبل تخدم كائنات غيرى.

- ولم تسأل من هى الكائنات التى خدمتها قبلك؟

- لم يوضح لى ذلك.

- إنها نحن.

فسألته باستغراب:

- أنتم ؟

- طبعا نحن.

- ومن أنتم ؟

- نحن كنا كائنات تسكن أرضا تشبه هذه الأرض وقد هبط أجدادى عليها للسبب نفسه الذى هبطتم أنتم من أجله، ولكن الأرض التى كُورت من أجلك تختلف عن الأرض التى كانت من أجلنا، فقد كانت تلك الأرض يلفها غلاف كثيف من الأكسجين مثل الرداء، وكان يحيط بها الماء من كل الأطراف.

سألت المرأة الرجل:

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال:

- سآتى لك بالجواب، اصبرى.

وتابع:

سألته:

- وما هو الأكسجين ؟

فقال:

- هذه الأسماء والمعارف أمضينا دهورا حتى عرفناها، وسوف تعرفها أنت الآخر، وتعرف غيرها، أما الأكسجين فهو أحد الغازات الموجودة فى هوائكم هذا، ومائكم، أما نحن فقد كان هواؤنا هو فقط من الأكسجين وكذلك الماء الذى يشبه ماءكم، إلا أنه كان أكثر ثقلا وأكثر ميلانا إلى اللزوجة.

- وما الذى حدث بعد ذلك؟

- كان ذلك منذ دهور طويلة عندما هبط أجدادى بحثا عن المعرفة، فلم تكن المعرفة قد كانت، بل كانت فى طريقها إلى التشكل، لأن الكائنات التى كانت قبلنا على غير أرضنا قد بادت، قبل أن تتشكل المعرفة عندها لأنها أسرعت إلى فنائها بسطوة معاصيها.

فاستغربت من كلامه وسألته:

- وهل كانت هناك كائنات قبلكم أيضا؟

فأجابنى وهو يبتسم :

- رغم أنك وعدتنى أن تكون من الصابرين، ولكن سأجيبك.. نعم كانت هناك كائنات قبلنا وعلى أرض تشبه أرضنا، ولكن الغلاف الذى كان يحيط بها هو الهيدروجين فقط، والهيدروجين أيضا هو أحد الغازات المكونة لهوائكم، ومائكم، لأنك تكاد تسألنى عنه فاستبقتك إلى الإجابة.

ومضى زمن عرف فيه أجدادى كل شيء، نعم كل شيء، وقد جاء فى اللوح الذى أنزل على جدنا الأول:

"أن سوف تنفصل معارفكم عنكم عنوة، فتتيه وتتيهون حتى إذا وجتموها تواصلتم معها، خذوها إليكم، ولكن إياكم ثم إياكم أن تأخذكم إليها"

كانت هذه هى الوصية التى حملها اللوح، وعندما انفصلت معرفة جدنا الأول تاهت عنه دهورا طويلة، حتى وجدها فأخذها إليه، كان لها شكل فاتن، إنها كائن مثير، لعلك لم تدرك أيها الكائن أن المعرفة كائن فاتن، ومثير ومدهش.

وحينها بدأت تنجب وتنجب فكانت كائنات مكتملة المعرفة، وكان كل كائن فينا لا بد له أن تنفصل عنه معارفه، وتتيه حتى يجدها فتكون له، ويكون لها، ويكون منهما كائنات مكتملة.

فسألته:

- وكيف كان شكل ذلك الكائن الذى ينفصل عن الكائن مكتمل المعرفة؟

فقال:

- إنه كائن يثير فى النفس أحاسيس تشدك إليه لتقع فى فتنته، فإذا وقعت فى غرامه أصبحت ملكا له وتابعا لأوامره، وإذا عصيته جعل حياتك جحيما تتوه فى الأرض ولا تعرف معنى للراحة..

وتابع يقول:

- وعندما أطبقت الفتنة على الكائنات، وأصبحت المعرفة فاتنة الجميع، صنعوا لها تمثالا ومعبدا وراحوا يصلون لها، ويقدمون لها كل القرابين من الكائنات حتى تمنحهم وجودهم ومعارفهم، وأمضت الكائنات دهورا وهى تصلى لذلك التمثال ليعيد إليها ما انفصل عنها وتاه، وما إن يعود ذلك الجزء التائه حتى يصلى له الكائن الأصل ويذهب إليه ويتحد معه، ويعود كما كان، وما هو إلا زمن حتى يتحول هذا الكائن إلى دخان ويتلاشى.

أما من يأخذ معرفته إليه دون أن يكون لها عليه من سلطان، ينجو من الهلاك، وتكتمل معارفه ويدخل كل بوابات الحكمة، ونحن من الذين نجوا، وجئنا نمنحك الحكمة، ونحذرك من رماد سوف يسقط فوق أرضكم، لا تعرف من أين ولا أين، ولكنه رماد الذين بادوا من سكان أرضنا وكانوا من العاصين، وممن أخذتهم الفتنة فعبدوا معارفهم وصلوا لها، فإذا ما سقط هذا الرماد كما يقول لوح الحكمة، تتحول ذراته إلى كائنات صغيرة تنتشر فى أرضكم فتنشر الفساد ويأجون ويموجون حتى يشربوا البحر فإذا ما تم لهم ما يفسدون، وما يخربون، وتبعهم ناس كثير، من نسلك، سيأتى كائن

منكم عرف الحكمة يبنى بينكم وبينهم ردما إلى حين. ما يلبثون أن يخرجوا، عندما تزيد معاصيكم، فتميد الأرض بكم وتبيد فتنزلقوا فى طين عظيم ولا ينجو منكم إلا الصالحون.

وبينما كان ذلك الكائن يحدثنى سمعتك تنادين:

أيتها الجهات

ضللت عن رجلى الذى / معه هبطت

رجلى الذى هبط معى / أنا عنه ضللت

أنا بحاجة إليه

دلينى أيتها الجهات عليه

هو من يبدد وحدتى

الرجل الذى أحببت / هو

الرجل الذى تحمّل منى ما لا يطيق / هو

الرجل الذى يشعل قنديلى / هو

الرجل الذى أتعبته دهورا / هو

الرجل الذى منحنى ما منحه الإله / هو

الرجل الذى ضل دهورا سبعة / وبحارا سبعة / وبقى يحبنى / هو

الرجل الذى لم أكن لولاه

رجلى الذى اخترع أبجدية من أجلى / هو

دلينى عليه أيتها الجهات

بدونه سألتصق بالتراب / وأمسى حجرا

بدونه لن يكون لى مكان هنا

عندها سألنى ذلك الكائن عنك فقلت له:

- إنها زوجتى التى تاهت منى بعد أن وجدتها

فقال لي:

- ومن أين جاءت؟

قلت له:

خلقت من طيني الذى خلقنى الإله منه، هى امرأة تشاركنى وجودى، أشف أمامها كالماء كما تشف أمامى كالضياء، وكلما نمنا تأخذنا النشوة، فنشعر أننا جسد واحد، كشجرة واحدة، ثم نغيب كما يغيب العطر فى الوردة.

وما إن ظهرتِ من بين الأشجار حتى شعرتُ بالكائن يرتعد ويحاول أن ينهض ويبتعد.

قلت له :

- ما بك ؟

قال :

- إنها هى.

سألته:

- من هى ؟

فقال:

- التى أخذت أجدادى ومن كان مثلى، فكانت الفتنة، وكان الدمار، عبدها الجميع، إلا من رحم ربى.

فقلت له مستغربا:

- ولكنها امرأتى.

فقال:

- إنها تشبه ما كان ينفصل منا، فإما يأخذنا وإما نأخذه، إنها المعرفة التى دمرتنا.

فضحكت هذه المرة وقلت له:

- لا... أيها الكائن.. إنها كائن رائع وأبعد ما يكون عن الخراب والدمار.
فقال لي:
لا تخدعنك أيها الكائن المسكين، خذها إليك وإياك أن تأخذك إليها.
- نحن لا أحد يأخذ الأخر. نحن الاثنين نأخذ بعضنا البعض.
وما إن صرتِ قربى حتى اختفى ذلك الكائن فحملتك وقد امتلأت شوقا إليك وعدنا إلى مكاننا.

وعندما استيقظت كان الذعر مسيطرا عليّ، وشعرت وكأن جسدى يكاد يتفتت ويتحول إلى تراب، كانت صورة ذلك الكائن مرسومة أمامى، ومازال صوته يتردد فى أذنى، بحثت عنه فلم أجده، لم أكن أعرف أن ذلك كان مجرد حلم، حتى رأيتك جالسة تقرئين فى اللوح، وكأن شيئا لم يحدث لك، ولم تتوهى، ولم أبحث عنك، وأحملك إلى هنا فتيقنت أن ما حدث لى مجرد حلم، ولكن القلق ما زال مسيطرا عليّ، لذلك كنت شاردا أفكر بذلك الكائن، وأنا على يقين أن ثمة كائنات تشاركنا أرضنا والذى رأيته فى الحلم أحدها.

فنظرت المرأة إلى الرجل نظرة دهشة مما روى، وتعرف أن ما يحلمان به هى أو هو، لا يأتى من الفراغ، أو من الهوى، وإنما لا بد وأن يكون ثمة شيء كالحلم.

لذلك كانت دهشتها كبيرة، وخوفها عظيم وهى تتصور كائنات تشبههما تقطن فى هذه الأرض، كم ستكون خيبتها كبيرة، فهى لا تريد أن يشاركها أى كائن هذه الأرض، لأنها كما تظن قد كورت ضريبة حلمها فى الفردوس، فكيف يشاركها فيها غيرها من كائنات لا حق لهم فيها.

وما أثار قلقها أكثر هو أن تكون من هى أكثر فتنة منها، فتأخذ رجلها، وتبقى هى وحيدة تأكلها الغيرة والوحدة، وتبدد نشوتها الغربة والبعد.
قالت له:

- أى حلم غريب هذا يا رجل؟

ـ ليتنى أغلق بوابة الأحلام فأستريح.
ـ لن تستطيع ذلك لأننا وجدنا لنحلم.
ـ إذن لا بد أن أجد ذلك الكائن.
ـ الأفضل أن ننسى الأمر.
ـ لا أريد أن أبقى قلقا.
ـ النسيان يريح .
ـ إذا استطعنا إليه سبيلا.
ـ ولماذا لا نستطيع .
ـ لأننا خلقنا من القلق.
ثم نهض وقال لها:
سأذهب إلى الغابة لعلّى أجد ذلك الكائن، لا بد أن يكون فى مكان ما.
قالت له وقد ازدادت غرابة:
ـ كأنى بك تريد لقاءه حقا. وكأنك تبحث عن سبيل لحلمك يجعله يقينا.
ـ تماما لأننى أتوق لمعرفة كل شيء عن هذا الكوكب أولست الخليفة، فكيف لى أن أغفل عن كائن موجود فوق هذه الأرض، ويحمل من المعارف ما أحتاج، فقد شعرت به يعرف أشياء لم تأت فى لوح ولم نتعلمها بعد. لم يعد كائنا جاءنى فى الحلم، بل أشعر وكأنه إشارة لنا كى نبدأ الرحلة التى وجدنا من أجلها.
ـ إذا لم تعرف أفضل لك ولى، لأن المعرفة قد تسقطنا فى هاوية لا نعرف لها قرارا، وقد ندخل فى تيه لا خلاص منه، فلنكتف بما عرفنا، لأنه كان من أجلنا، ولنا، وما دون ذلك يقلق وجودنا.
ـ مادمتِ معى فلن أخاف أية معرفة مهما كانت مجهولة، وغامضة. لا تخافى، سأعود، اقرئى فى اللوح حتى أعود.
ـ كما تريد .

وقبل أن يمضى طلبت منه أن يهز لها جذع الشجرة مرة أخرى قبل أن يتابع رحلته، لأن الثمار التى سقطت قد شارفت على أن تنهيها، ففعل وهمَّ بالذهاب، إلا أنها نادت عليه، وطلبت منه أن يحضر لها ما يراه فى طريقه من ثمار غير هذه الثمار، فقال لها:

- أمرك يا ربيبة الحياة.

فقالت له:

- فى طريقك تنزل السكينة، وفى رحلتك يحالفك الفلاح، يا ربيب الوجود.

تأملها وهى تنظر إليه فسألته:

- ما بك؟ هل أقلعت عن الرحلة؟

وكانت فى سرها تتمنى لو أقلع عن رحلته التى قد تحمل لها من القلق ما لا طاقة على حمله.

- بل لا أعرف كيف سأرحل بدونك هذه المرة.

- إبق معى إذن.

- لا أستطيع، لا بد أن أعرف سر ذلك الكائن.

- إذن تحمل بُعدى عنك، لعلك فى الرحلة تكتب لى من كلماتك التى تشبه الفردوس، وتجعلنى أحلق إلى عينيك، وأنام بين يديك، فنغتسل من كل الخطايا.

اقترب منها، مد يده، وأمسك يدها، فنهضت، ضمها إليه حتى شعر أن دوارا كاد يقلب هذا الكوكب فقالت له:

- قليلا، قليلا، خشية أن نطير مرة أخرى.

- بل أخشى أن تنجذب إلينا كل المجرات، فتضيع أرضنا، وتفقد مداها.

ثم قال لها:

- لن تطول رحلتى.

ومضى فى الغابة، كانت الغابة واسعة جدا، والأشجار كثيفة، فمشى ومشى، فى كل الاتجاهات، لكنه لم ير أحدا، ولم يسمع أية حركة تدل على وجود كائن يشبهه، سوى أصوات الكائنات التى ألف صوتها، وعرف أشكالها، وتذكر أسماءها، وعندما شعر بالتعب وقاربت الشمس على المغيب، جلس ليرتاح على صخرة فى أطراف الغابة، قال يحدث نفسه:

- هل يعقل أن يكون الأمر مجرد وهم لا حقيقة له؟

ولكن لا يمكن أن يكون وهما. فأحلامنا ظل للحقيقة.. لا بد إذن أن أتحمل كل التعب، حتى أجد ما رحلت من أجله.

حينها سمع صوت صهيل ورأى حصانا يقترب منه ويقف قربه قال له:

- ما وراءك أيها الحصان؟

- جئت من أجلك فإن تعبت أحملك إلى حيث تريد.

- ستكون معى وترافقنى فى رحلاتى، العشب مرعاك والريح جناحاك وسأوصى إلى الكائنات ألا يمسك أحد بضر، فأنت منذ الآن راحلتى التى تختصر المسافات لى، وتحملنى إلى غاياتى.

فصهل الحصان تعبيرا عن شكره وامتنانه للخليفة الجديد، وراح يرعى بعض الأعشاب، بينما الرجل بقى جالسا فوق الصخرة يأخذ قسطا من الراحة.

حتى إذا حل المساء وأطل القمر من بين أوراق الأشجار، وبدت النجوم والكواكب، رفع رأسه إلى السماء، وشعر بشعور كاد يلقى عليه وشاحا من الكآبة لكنه ابتسم وقال:

- آه أيتها المرأة / لا بأس من أجلك ليحدث كل شيء / أى شوق يملأنى إليك، وأى حنين يتملكنى إلى فتنتك / تراك ماذا تفعلين الآن؟

وأخرج لوحا من حقيبته وبدأ يكتب لها:

أتعبتنى الرحلة

والغابة ما زالت تتسع أمامى
كأن طريقى لا نهاية لها
وكأنك نزيف من الشوق
يهتف لى من هناك
من المسافة البعيدة فأكاد أراكِ
ولكنى لم أركِ
سآتى إليك على ظهر الحصان
الحصان الذى سرعته تفوق سرعتى
سيختصر الوقت الذى أمضيه للوصول إليك
سيحملنا معا إلى حيث نشاء
سنرحل عليه متى نشاء
الحصان الذى له أربع قوائم طويلة
وصدر عريض
وجسم قوى
سيكون معنا.

وبينما هو يتأمل السماء، والمسافات الطويلة أمامه، والأشجار الكثيفة، ظهر أمامه كائن يشبه ذاك الذى رآه فى الحلم، أحس برهبة بادئ الأمر لكنه ما لبث أن تماسك وثبت وقال له:

- من أنت ؟

- أنا الذى كنت أحدثك بالأمس.

- ولكن الذى كان فى الأمس حلما.

- أنت تظن ذلك فأنا أحدثك، ولو كنت نائما، وعندى من المعرفة والحكمة ما يجعلنى أكشف كل شيء فى داخلك. أسكنك حين أشاء، لأكون مرآة فى ذاتك، ووحيا فى روحك.

عرفت منك الكثير فى الأمس، وعندما استيقظت المعرفة قربك اختفيت خشية أن تجذبنى إليها فأتوه كما تاه الذين من قبلى.

فأدرك الرجل ما يشير إليه ذلك الكائن، لكنه آثر السؤال باستغراب مرة أخرى فلعل فى الأمر معرفة أخرى يجهلها:

ـ أية معرفة كانت قربى وكيف استيقظت؟

ـ كانت قربك فتنة تشبه المعرفة التى كانت تنفصل عنا ثم تأخذ من تشاء إليها فيتوه، ومن يأخذها إليه ينجو.

ـ تقصد المرأة زوجتي؟

ـ المرأة؟ هل المعرفة لديك اسمها امرأة.

ـ نعم المرأة، هى كل وجودى، وأحلامى، ومعارفى، وضلالى، وحكمتى، وخلودى، إنها سر يفوق كل الأسرار، كائن أرق من نسيم الصباح، تشف عن بريق يخطف الروح قبل البصر، لو لم تكن معى لما كنت كما أنا.

ـ كأنها أخذتك إليها؟

ـ عن أى شيء تتحدث؟

ـ عن الدمار الذى سيحل بك وبكوكبك.

ـ لا أعتقد أنك على حق، فما حدث لك ولقومك ليس بالضرورة أن يحدث لنا. فإذا أخذتكم الفتنة فضيعتم ما كنتم من أجله، فنحن هنا نرتب الوجود بالحكمة.

ـ ولكنك ترتكب الخطيئة نفسها.

ـ إنها امرأتى التى كانت منى، وكنت منها، أرسلنا الإله إلى هذا الكوكب لنكون خلفاءه عليه، ولكى يكون لنا وجود لا يشبه وجود الكائنات، سخر لنا كل شيء كى نصنع الحياة، ونسلك سبلا توصلنا إلى فردوسنا المفقود، فنعود إلى خلودنا.

ـ متوهمان.

- لسنا متوهمين.

- لا بأس إذا كنت مُصراً على ذلك لا بد أن أكمل عليك قصتى حتى تعرف ما أرمى إليه، فإن وقع كلامى فى نفسك موقعا حسنا فخذ به، وإن لم يكن كذلك، فلك ما تريد وعش كما تشاء، وسر فى المسالك ما شاء لك المسير، لا سلطة لى عليك، فأنا مجرد كائن يريد أن يؤدى رسالته قبل أن يغادر هذا الكوكب الوحيد.

- هات قص علىَّ حكايتك.

وراح الكائن يكمل حكايته:

"كان أجدادى أضعاف حجمى، وكانوا يعمّرون طويلا، ولكن مع مرور الزمن أجسامنا راحت تصغر، ومعارفنا تكبر حتى جاء يوم رأيت فيه جدى الأول فى المنام، فسألنى عن أحوالى وأحوال أحفاده، وما آلت إليه معارفهم هل أخذوا أم أُخذوا، فلم أعرف بماذا أجيبه، ولكن حدثته عن كل شيء، عن المعرفة التى كان يصلى لها الجميع، كبيرا وصغيرا، فقال لي:

- أُخِذوا إذن..

وبكى حتى تبللت لحيته البيضاء، وجرت دموعه بغزارة كالأنهار / ثم قال لي:

- سأترك لك رسالة ربما يكون فيها الخلاص، وسوف تكون أمانة بين يديك، فإن أديت الأمانة كما يجب ولم يتغير الحال حل بكم الدمار.

وإن لم تؤدها كما يجب، أصابكم عذاب أليم، وطويل، ثم حل بكم الدمار.

عليك أن توصلها إلى كل أحفادى فى الأرض فقلت له:

- أمرك يا جدى.

فقال :

- سأمنحك مفاتيح الحكمة، كى تكشف الحقائق أمام الجميع لعلهم إلى رشدهم يعودون فيعقلون.

ثم أملى على الرسالة:

"إذا سئلت فقل الحق ولو صلبوك، وإذا رأيت الظلم فامنعه، فإن لم تستطع فافضحه، لا تخش فى الحق لومة لائم، فإنى أعرف أن الناس عندكم فقدوا فطرتهم، ونسوا ما كانوا منه، وما كانوا من أجله، فطغى الملوك وكثر الفقراء والجائعون، فسيدكم يتعالى حتى يظن أنه إله، وعلمكم الذى تصنعون بأيديكم سيقتلكم إذا لم تكن حكمة ترعاه.

ثم تابع :

" الحكمة سبيل الفلاح والمعرفة، أما المعرفة التى لا حكمة فيها فهى سبيل الهلاك والضلال، وإنى أراكم إليها سائرون، قل لهم لا جبروت إلا الله، فلم التماثيل التى تعبدون، فإن تجبروا وصموا الأذان عنك وحاولوا النيل منك، فاصعد إلى الجبل الكبير، أنت ومن تبعك، ثم اتجهوا إلى البحر فاصنع سفينة الخلاص وادخلا فى البحر، لأن الأرض ستميد بعد حين وتبيد، ولن يبقى غير الماء، فمن تبعك وركب معك نجا، ومن ضل عنك وعصا أمرك هلك، ولو كان من أهلك، ستظلون فى الماء دهورا حتى إذا دكت الأرض دكا، وتناثرت فى الفضاء، سيحملكم الماء حتى يشاء الله. فيجعل لكم مخرجا."

وكان ما كان يراه جدى، وفعلت ما أوصانى به، وبينما نحن فى السفينة فوق الماء نسير وصلنا إلى عمق سحيق، والماء يدور بنا، وكنا كلما احتجنا شيئا دعونا الله فتأتى حاجاتنا إلينا، حتى مضى علينا دهر ونحن فى الماء، فوصلنا إلى مكان مظلم جدا، والماء فيه كالجبال، شعرنا بالخوف ولكن أحدنا قال لنا:

ـ لا تخافوا فالله معنا، ولسوف يهدينا سواء السبيل وينجينا.

فدعونا ربنا أن ينجينا من هذا العتم، ومن جنون اليم، فاستجاب لنا ونجانا من الهم والغم والكرب العظيم.

وبينما نحن فى الحديث، ودون أن يرى أى منا الآخر بدأ الماء يتلاطم بشدة فخشينا من السقوط فى البحر، ودخل الهلع إلى قلوبنا، وما هى إلا موجات من الوقت، حتى ظهر علينا كائن ضخم وغريب، حمل السفينة بين يديه كما تحمل الحجر وقال لنا من أى أرض أنتم قادمون؟

فقلت له:

- من الأرض التى مادت فبادت وبقينا نحن.

فأنزلنا من بين يديه وقال:

- لا بأس لقد كتبت لكم النجاة.

فقلت له:

- من أنت أيها الكائن؟

- أنا سيد هذا الماء وقد جعلنى ربى حارسا عليه ومسيرا لمياهه ثم قال:

- اتبعونى.

فتبعناه حتى وصلنا إلى مكان أصبح فيه البحر أبيض وماؤه قد تجمد، فحمل السفينة ووضعها فوق الجليد ثم جلس وراح يحدثنا عن نهاية هذا التيه، فسألنا:

- كم مضى عليكم فى الماء؟

فقلت له:

- دهرا كاملا؟

فقال:

- ستبحرون سبعة دهور، وبعدها سترحلون إلى كوكب يكوره الإله من أجل كائن أخبرنا أنه سيجعل منه خليفة على ذلك الكوكب، وعندها سيكون لزاما عليكم أن تمنحوا ذلك الكائن كل ما تعرفون، وما تحملون من معارف. كى ينجو من خطاياه، ويسلك سبلا للنجاة.

ثم منحنا الكثير من الأسرار وقال لنا:

- اذهبوا فى الماء، فإذا صادفتم ما يعيق وجودكم نادوا علىّ ألبّى نداءكم.

ومضى علينا سبعة دهور، أبحرنا خلالها فى الماء اللا منتهى، حتى جاءنا النداء:

- لقد اكتملت الأرض وهبط الكائن عليها، وأفرغت ما يكفى من الماء فيها، فارحلوا باتجاهها حتى تصلوا إلى حدودها فاهبطوا هناك وأبحثوا عن الكائن الجديد.

وها نحن التقينا أيها الكائن الجديد.

فسأله الرجل:

- ولكن أين أتباعك ألم تقل إن معك أتباع؟

- ليسوا أتباعا وإنما هم مثلى يحملون رسالتهم إلى هذا الكوكب، وقد انتشروا يزرعون معارفهم فى جهات الأرض، وقريبا سوف يحضرون، حتى إذا قضى الأمر جاؤوا، إنهم ستة من العلماء والعارفين، ونحن السبعة نحمل الرسالة التى ستحمل هذه الأرض وتجعل منها كوكبا لا تشبهه جميع الكواكب.

لقد تم لنا أمر حمل الرسالة، بعد سبعة دهور، فقد اكتملنا بتوحدنا مع معارفنا، ولم نعد نتكاثر لأن الكائن فينا إذا دخل حالة التمام دخل حالة الحكمة، والحكمة هى السبيل الوحيد للعودة إلى الفردوس والنجاة من عواقب المعاصى.

ثم تابع الحكيم حديثه مع الرجل فسأله:

- ولكن أراك حزينا كئيبا فما الذى حدث لك وأنت ما زلت جديد العهد على هذا الكوكب، ولم تر الذى رأيناه، وما زال أمامك دهور كثيرة لا حصر لها. ومازال لك من السبل والمسالك ما لا حصر له، فإن أحسنت الاختيار، كان لك ما تريد، وشفت روحك كالنهار.

- ماعرفت من قصتك، ومصير كوكبك، أدخل إلى قلبى الهلع، ولكنّ هلعا أكبر منه وقع فى نفسى، وأنا وزوجتى وحيدان، كيف لنا أن نستمر ونحن نعيش وحدة قاتلة، رغم يقيننا أنه سيكون لنا نسل يرثوننا. ولكن الأمر قد تأخر، والانتظار طال.

- لسوف ترزقون بأولاد قريبا، فلا تيأس، لأن القنوط يقتل الحلم.

- ولكن مضى زمن طويل، ولم يحدث ذلك،

- سيكون لكما ذلك بوقته، فلا تكن من الأمر فى عجل.

فصمت الرجل ثم طلب منه أن يرافقه حيث زوجته تقيم فقال الكائن:

- أخشى أن أراها فأفقد تمامى، ويتلاشى اكتمالى، وتأخذنى فتنة مَنْ سبقونى فأدخل فى تيه جديد.

فقاطعه الرجل:

- لا تخش.. أيها الحكيم، إنها امرأة طيبة ولا علاقة لها بما صنعتم من تماثيل لأن معارفنا قد لا تشبه معارفكم، فنحن لا نصل إلى التمام كما وصلتم، وإنما نبقى فى سعى دائم إليه، ودائما يكون لنا الجديد، هذا ما جاء فى ألواح معارفنا التى حملها لنا الإله.

فصمت الحكيم لحظة ثم قال:

- ولكن على أن أدعو أصحابى من جهات الأرض ثم نمضى جميعا.

- ولكن الأمر يحتاج إلى زمن طويل حتى تراهم وتدعوهم وتحضرهم إلى هنا.

فضحك الحكيم ثم قال:

- ألم تقل إن معارفنا تختلف عن معارفكم، فلقد علمتنى حكمتى ومعرفتى كيف أحضر من أريد وما أريد بسرعة فائقة، وبدون عناء، فلدىَّ علم يجعلنى أرى من أريده عبر المسافات الطويلة، وحتى عبر الزمن الماضى، فأنا أراهم جميعا الآن أين يقطنون، وفى أى مكان يهيمون، وما إن يرتد طرفك إليك

حتى تراهم أمامك، وهذا العلم وهذه المعرفة يجعلاننى على رأس المجموعة المعرفية، ويظن من يرانا أنهم أتباعى على أن كل واحد منهم لديه علم متخصص فيه، أما أنا فمتخصص بكل العلوم والمعارف، وأعرف جميع أبواب الحكمة.

وهكذا تم وصار.

فمضى الثمانية فى الغابة، الرجل والحكماء السبعة إلى أن وصلوا حيث تجلس المرأة تقرأ فى اللوح، وما إن رأتهم حتى وقفت مرحبة، ولكن الدهشة كانت بادية فى عينيها وعلى ملامح وجهها، وحدثها زوجها عن قصة ضيوفه وتسامر الجميع، حتى نامت الكائنات فى الغابة إلا قليلا.

●●●

وفى وقت آخر قال الحكيم لمن معه:

- سننحت فى هذا الجبل قصرا للكائنين الجديدين.

فسألت المرأة:

- وكيف يكون القصر وكيف ستنحتون الصخر؟

فضحك الحكيم وقال:

- ما وصلنا إليه من المعرفة يجعلنا نقوم بأكثر من هذه المهمة.

سننحت لكما قصرا جميلا، تسكنان فيه لا مثيل له من قبل ومن بعد، فهذا أقل ما يمكن أن نقدمه لكما على حسن ضيافتكما واستقبالكما لنا.

فشكرت المرأة الحكيم وكذلك فعل زوجها.

ومضى وقت أصبح فيه القصر جاهزا، ثم نحتوا لهما قصرا آخر، لكن المرأة طلبت أن ينحتوا لها قصرين آخرين ففعلوا ذلك.

وبدأ الحكيم يعلم الرجل الحكمة والمعرفة، وأصحابه يعلمونه ما يعرفون من العلوم حتى أصبح عارفا بكل شيء وقال الجميع له:

- أنت سيدنا ونحن طوع أمرك.

- ولكن أنتم من علمنى الحكمة والمعرفة، فأنا ممتن لكم وشاكر لكم ما قدمتم من أجلى، ومن أجل زوجتى المرأة الطيبة.

- ليس نحن من أوقع فى نفسك الحكمة والمعرفة، وإنما هو الله الذى علمنا، وجعلنا سببا فى تعليمك.

- ولكن سأبقى مدينا بفضل عظيم لكم.

- الفضل له وحده، فالأرض هذه من أجلك، وأنت خليفة الله فيها، وما نحن إلا ضيوف عليها، ومن واجبنا أن نمنحك ما منحنا الله إياه. أما نحن فسوف نعكف على البحث مرة أخرى وسنسجل ما نكشف من الحقائق على هذه الأرض، وندونها فى ألواح ننثرها فى جهات هذا الكوكب حتى يأتى اليوم الذى يصير فيه فردوسا.

ومن يومها علموه الزراعة وكيف يحرث الأرض وكيف يزرعها لتنبت له ما يشاء، لكن شيئا ظل يضايقه ويحزنه، رغم كل ما وصل إليه رغم أنه يعيش فى قصر منيف ما له مثيل وكل الكائنات طوع أمره وفى خدمته وينام فوق سرير وثير لكن هذا الشيء بقى يضغط على نفسه ويكدر عيشه فقال له الحكيم:

- الصبر مفتاح الحكمة.

- ولكن صبرت بما فيه الكفاية.

- لا تقل صبرت ولكن قل إن شاء الله أكون من الصابرين.

- إن شاء الله أكون من الصابرين.

وشعر الحكيم بما يضايق الرجل وما يقض مضجعه فقال له:

- سينجلى حزنك وقلقك ما إن يكون الأمر بذلك.

- ولكن أخشى أن يتأخر الأمر، والحال متعب، والنفس تائهة، والوحدة قاتلة، والروح فى قلق عظيم.

- لا بأس أيها الكائن، ادع ربك يستجب لك، ونحن علينا أن نجمع ما يلزم من الأعشاب لتداوى امرأتك، فبيننا من هو عالم بهذه الأمور، وكان فى أرضه طبيبا فريدا من نوعه، فربما يكون السبب دهور التيه التى أمضتها زوجتك، فلا بد لها من علاج يعيدها كما كانت. فلا بد أن يكون ما جاء فى لوح نشأتكما، ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب حتى يكون ذلك.

فقال الرجل:

- ولكن وبعد هذه الدهور.

- أجل بعد هذه الدهور، فأنت مازلت فى بداية الطريق، كيف يدركك اليأس، فما الذى كان سيحدث لك لو عشت ما عشناه ورأيت ما رأيناه، افعل ما أشرت عليك، أما نحن فسوف نعود إلى الغابة نجمع ما يلزم من أعشاب ونباتات.

فدخل الرجل إلى قصره وكأنه خارج من الفردوس لتوه من كثرة البؤس الذى يتلامح على وجهه، سألته زوجته عن سبب حزنه لكنه لم يجب بل فضل أن يجلس وحيدا إلى وقت، وعندما سألته عن السبب قال لها:

- أحتاج إلى قليل من التأمل، وأشعر بحاجة لتدوين بعض الأشياء.

فابتسمت مداعبة:

- هل هى قصيدة جديدة ستكتبها عن حبيبتك زوجتك؟

فابتسم ولكن دون أن يغادر الحزن وجهه:

- ربما تكون قصيدة وربما تكون أشياء أخرى.

- ثمة ما يشغلك عني؟

- بل كل شيء يشغلنى بك.

- حدثنى عما يتعبك.

- كل شيء فى وقته وستعلمين قريبا كل شيء، أما الآن فدعينى أمضى إلى مكانى أتأمل قليلا.

ودخل الرجل غرفته وحيدا:

" المدى ضيق على / وأنا أفتش عن نافذة

نافذة تكون مثل الأمل لى

تعلمت كل شيء

ولكنى لم أتعلم كيف أخلق من هو مثلى

فأنا ضعيف

كائن ضعيف

الغابة لم تعد تجلب الراحة لى

ولا القصر/ ولا الكائنات / ولا حتى المرأة

المرأة التى ما تزال تسعدنى / وستبقى

لم أعد أعرف ما أريد

امنحينى أيتها السماء سر وجودى / ووجود كيانى

وخليفتى الذى يكون منى

ما زلت أحمل ضعفى / وفنائى

نفد صبرى / وضلت حكمتي

فهل لى من طريق

طريق إلى الهداية / والراحة / واليقين

●●●

أنا الكائن المخطئ

المذنب

التائه

الحزين

الضعيف

الذى لا يوجد مثيلى بين الكائنات

أنا الكائن الوحيد
مع المرأة الوحيدة
فى هذه الأرض الوحيدة
ابعثى لى أيتها السماء من يخلفنى
من يحمل همى / ويحمل عنى / ويحمل معى
فأنا متعب وحزين / لأننى كائن فان.
ثم نام بعدها ...

وبينما كان الرجل نائما، شعر بنفسه يدخل فى بوابة واسعة من النور، ثم سمع صوتا يناديه:

ـ اغتسل وزوجك فى النور.

تلفت حوله فلم ير أحدا، ورأى زوجته قربه وقد غطتهما سحابة من نور، بدأت تنساب فوق جسديهما فأحسا بالدفء يغمر روحيهما ورأى زوجته تطير حوله كالحمامة البيضاء، مفعمة بالفتنة والرغبة والنشوة، فأسلم روحه وجسده لفتنتها، فانطوت بين يديه، حتى تغشاها.

ثم جاء رجلان يرتديان ثيابا بيضاء ويشع النور من وجهيهما فسألهما:

ـ من أنتما ومن أى عالم جئتما؟

فقالا:

ـ نحن رسولا ربك إليك جئنا نبشرك بمن يخلفك.

ـ أبعد كل هذه الدهور تأتى البشرى، سبحان الله الذى يعطى متى شاء وكيف شاء وأين شاء.

ـ وسوف يكون لك أولاد كثيرون ينتشرون فى الأرض فيعمرونها بإذن الله، ويكون هناك نسل كثير، فإذا ما أقام الجميع الميزان، لم تخطئهم الهداية، أما إذا لم يقوموا بالميزان، ستختلط عليهم سبل الهداية والضلال.

ـ ومتى يكون ذلك؟

ـ بعد غابة من الوقت، حتى إذا رأيت البحر وقد غطاه زبد كثير فلتكن امرأتك بين يديك كما كانت الآن، ولتمنح فتنتها ماء الوجود، ولتمنحك ما يشعل وجدك، ويربك أسرارك، ولتكن ليلة السر العظيم، فإذا تغشيتها ارتفعت أمواج روحك كما هى أمواج البحر، فامتلأت بها روحها، لتدخلا معا فى كينونة الوجود والخلود.

ثم تابعا:

- وسوف يكون لك فى كل زمن توأمان حتى إذا مضى سبع غابات من الوقت كان لك سبعة توائم يتزاوجون فيما بينهم وينتشرون فى الأرض طولا وعرضا.

وغاب الرجلان حتى إذا استيقظ وجد المرأة وقد نامت فأيقظها ثم أخبرها بما رأى فقالت له:

- اقصص رؤياك على الحكيم يخبرك بتأويل ما رأيت.

وعندما خرج من قصره وجد الحكيم وأصحابه وقد أوقدوا نارا يغليان عليها بعض الأعشاب فى إناء صنعاه من الطين، دعاه الحكيم عندما رأى على وجهه علامات الكلام، ثم قدم له بعض المغلى فشرب وكان ذا مذاق طيب فقال له الحكيم:

- أرى فى وجهك كلاما لوشئت أخبرتك به، ولكن أفضل أن تفصح عنه أنت لأن ذلك أقرب إلى اليقين.

فقص الرجل على الحكيم ما رأى فقال الحكيم:

- إنها البشرى، ولكن علينا أن نأخذ بالأسباب.

- كيف ذلك ؟

- علينا أن نعد لامرأتك أعشابا من الغابة حتى تتم الرؤيا، ويكون لكما ما يشبهكما، سبعة توائم بعد سبع غابات من الوقت.

- وكيف سأعرف غابة الوقت؟

- عليك أن ترى القمر بدرا تسع مرات.

وكلما رأيته بدرا تقدم لامرأتك قليلا من مغلى الأعشاب الذى سنعده لها، حتى إذا اكتملت رؤياك تسعا تضع امرأتك حملها توأما ذكرا وأنثى.

- وسوف يكون لى من يخلفني؟

- سيكون لك من يخلفك.

فنهض وقد ملأت البشرى وجهه والسرور قلبه فسأله الحكيم:

- إلى أين ؟

فقال:

- إلى امرأتى كى أزف لها تأويل ما رأيت.

فقال الحكيم:

- ولكن عليك أن تعرف قبل أن تمضى أن تغيرا فى مواقع النجوم سوف يحدث كلما وضعت امرأتك حملا وسوف يكون لكل توأمين نجم يلد معه، ويشرق فى ذاته ويمتد فى أبنائه وذريته، ليصبح برجه الذى يحمل سره، وتغيراته عبر الأزمان.

أما الآن فاذهب وزف البشرى لزوجك وسوف يكون لنا حديث طويل فى وقت آخر.

فنهض الرجل إلى زوجته، حتى إذا دخل عليها وجدها تتحدث مع نفسها فوقف ينصت إلى حديثها وهو مستغرب من فعلها هذا، فهى لأول مرة تفعل ذلك، حاول أن يفهم ما تقول، كان كلامها أشبه بالكلمات التى كان يخطها لها فقال لها:

- هل بدأت تكتبين الشعر مثلي؟

فأشارت إليه أن ينتظر قليلا دون أن تتكلم فانتظر وهو صامت:

وتابعت هي:

سيكون زبد البحر لى

يطلق من دمى أفقا

يضم جهات الكون فى عليائه

ثم تهبط نجمتان إلى مدارى

كلما اشتد الحنين إليك

وكلما إليك اشتد الحنين

يسكن الماء فى تراب روحى

فتطلع نجمتان
إلى المدى.
وعندما انتهت من الكلام التفتت إلى زوجها وقالت له:
- إنها البشرى وصدق الرؤيا، سيكون لنا من يخلفنا.
- ومع من كنت تتحدثين؟
- مع رسولين من ربى جاءا يبشرانى بصدق ما رأيت.
- ولكن كنت تقولين كلاما غريبا.
- كنت أردد ما يلقنانى إياه كى تكتمل الرؤيا.
- لقد حدثنى الحكيم بصدق الرؤيا أيضا، ولن يطول الأمر حتى تحملى بأول كائنين منا، يشبهاننا، ويحملان صفاتنا، ومعارفنا.

وكان القمر الأخير، وقارب نهاية غابته فاستيقظ الرجل يومها مذعورا على هزة قوية، وبعدها شاهد الجبل الكبير يتفجر، ويتناثر لهبا أحمر فى الفضاء، فسارع إلى الحكيم وقد دخل خوف عظيم إلى قلبه، فقال الحكيم:
- إنه النجم الجديد الذى تكون فاشتد النور على الأرض فاهتزت فرحا بالنجم الجديد، وهذا يعنى قرب ميعاد أول توأمين.
- ولكن أشعر وكأن دمارا سيحل بالأرض.
- لا تخف.

إنه مجرد بركان بسيط، تتنفس فيه الأرض، وتعبّر عن فرحتها، وسيتوقف بعد قليل، اذهب إلى امرأتك الآن فالليلة قد يجيئها المخاض.

وعندما عاد إلى القصر لم يجد زوجته فأصابه الذعر مرة أخرى، وخرج إلى الغابة بحثا عنها فوجدها تجلس إلى جذع إحدى الأشجار وحيدة والتعب باد عليها فسألها:
- ما بك ؟
قالت له:

- لا شيء ولكن أشعر بآلام فى بطنى، وكأن أحشائى تريد أن تخرج.

فابتسم:

- إنها البشرى يا امرأة، إنها البشرى، هيا أساعدك للعودة إلى القصر.

قالت له:

- لا طاقة لدى على الحركة، دعنى هنا فأنا أشعر بالراحة عندما أكون قرب النخلة.

فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت:

- ليتنى ما حملت فى الفردوس.

فقال لها:

- هل أنت نادمة ؟

- هل يفيد الندم، وقد حلّ بى الألم، ألم أكاد لا أطيقه؟

- سترتاحين بعد أن تضعى حملك، توكلى على الله يا امرأة، لم يكن بيدنا شيء، ولم يكن الأمر أمرنا.

وبينما هو يتحدث معها صرخت صرخة اهتزت لها كل خلايا الرجل فخاف عليها وأسرع إلى الحكيم يخبره بالذى يحدث لزوجته، ويطلب منه الحضور مع بعض أصحابه ليروا ما ألمّ بالمرأة، وهل هو المخاض فطمأنه الحكيم، وسارع معه وقد رافقهما بعض أصحاب الحكيم ممن لهم خبرة فى الطب.

جلس الجميع حول المرأة وهى تصرخ فقال الحكيم:

- تمسّكى بجذع النخلة وهزيه حتى إذا سقطت رطبه عليك غادرك الألم ووضعت حملك.

ففعلت ما أشار عليها به.

وما هو إلا وقت قصير حتى كان الطفلان يبكيان، حملهما الحكيم وبدأ يقرأ ما يعرف من الأدعية ثم قال:

- لقد كتب البكاء على كل طفل حين ولادته.

فسأله الرجل:

- ولماذا ؟

- لأن لحظة الولادة تشبه لحظة الهبوط من الفردوس، ألم تبكى أنت حينها.

- بكيت أنهارا.

وسوف يبكى كل أبنائك وأبناء أبنائك حتى يأتى أمر الله.. ولكن لا تخش، فما يلبث الأطفال أن يعتادوا على الحياة الجديدة كما اعتدتما عليها، وإذا ما سكنوا إلى بعضهم ستزدحم الأفكار فى رؤوسهم ويكون لهم طرق كثيرة وواسعة.

ثم أعاد الطفلين إلى الرجل ليحملهما إلى القصر، بينما أمر أحد أصدقاء الحكيم وكان طبيبا ليحضر ماء إلى القصر ليغسلا الطفلين ويضعهما قرب أمهما بعد عودتها إلى القصر ليهدآ ويناما.

وراح الحكيم مع أصحابه يعدون خلطة من الأعشاب مع قليل من لحم الطير ليقدموه إلى المرأة، وبعد ما ارتاحت فى قصرها، أكلت ثم ضمّت الطفلين إلى صدرها فتفجر نهداها بالحليب، وشعرت بلذة لا تعدلها لذة وراح الطفلان يرضعان من نهديها بينما كان الرجل ينظر إليهما.

قال لها:

- يا ليتنى كنت مثلهما.

قالت مداعبة :

- أية امرأة ستحملك؟

- لا أريد أن تحملنى امرأة.

- إذن ماذا تريد ؟

- أريد أن أحظى بمثل هذا الحنان الذى لم أر مثله من قبل.

- هل تغار من الطفلين؟

- إنهما على شاكلتنا، فكيف أغار ممن كانا منى ومنك، ولكن أشعر بالبرد بعيدا عنك.

- عليك أن تتحمل الفراق قليلا.

- سأعلمهما كل شيء، وسأصطحبهما معى إلى الغابة، سأريهما كل الكائنات.

- ولكن بماذا سندعوهما؟

- لا أعرف، هل نسأل الحكيم؟

- لا حاجة لسؤاله فهما ولدانا، ولنا الحق أن نسميهما ما نشاء.

وراح يفكر الرجل طويلا، حتى خطرت فى باله فكرة فسأل زوجته:

- ما رأيك لو بحثنا عن اسمين لهما فى الألواح؟

- لا بأس.

وراح يبحث فى الألواح عن اسمين مناسبين للطفلين حتى قال لزوجه:

- ما رأيك لو نسمى الطفل أديم والطفلة سماء، لأنهما نعمة السماء على الأرض؟

- نِعمَ الاسمان.

وانشغل الاثنان بالولدين حتى كادا ينسيان الحكيم وأصحابه.

أما الحكيم ومن معه فقد عكفوا فى غرفتهم منذ انشغال الرجل وزوجه بالولدين، ولم يغادروا تلك الغرفة إلا بعد وقت طويل فقد استغلوا فرصة انشغال الرجل مع ولديه وامرأته وراحوا يدونون كل علومهم على ألواح ويجمعونها من أجل تركها فوق هذا الكوكب لأن ميعاد رحيلهم قد آن أوانه، ولم يعد بمقدورهم البقاء سوى قمر واحد من الوقت.

قال الحكيم وهو يملى على أصحابه ما تعلم من الحكمة:

- كأننا عدنا إلى بدئنا.

- كيف ؟

- ها نحن عدنا ندوّن على ألواح الطين بعدما توصلنا إلى أشياء بديلة عنها وأسهل استخداما، لكن الحضارة انتهت وفنيت.

وكما هى وصية جدهم كان لا بد أن يمنحوا المعرفة جميعا، والحكمة قبل أن يقضى الأمر فيما بينهم، وتنتهى رسالتهم التى جاءوا من أجلها.

ولما انتهوا من تدوين الألواح، صنفها الحكيم فى سبع مجموعات تكتمل فيها المعرفة والحكمة، ثم قال لأصحابه:

- اجعلوا كل مجموعة فى مكان، واجعلوا لكل لوح سرا، ولكل سر مفتاحا، ودليلا، فسأله أحدهم:

- ولماذا نفعل ذلك إذا كان بإمكاننا منح المعرفة والحكمة كما هى لتحصل عليها الكائنات بسهولة؟

فابتسم الحكيم:

- المعرفة السهلة لا تعطى أكلها كما يجب، وكذلك الحكمة

●●●

ومضى قمر من الوقت كان الرجل فيه مشغولا بولديه وزوجته ولم يخطر بباله أن الحكيم وأصحابه، يعدون العدة لمغادرة هذا الكوكب، ولسوف يبقى وحيدا إلى أن سألته زوجته:

- ما أخبار الحكيم ؟

قال لها:

- لم أره منذ وقت.

قالت:

- وكيف ذلك؟

قال:

- شغلنى الطفلان عن أن أذكره، والفرحة أخذت على تفكيرى.

قالت:

- اذهب إليه الآن وادعه وأصحابه إلى قصرنا. وأخبره بأسماء ولدينا.

فنهض الرجل ومضى إلى الحكيم وما إن وصل حتى وجد المكان هادئا لا صوت فيه، ولا حركة، دخل فلم يجد أحدا، كان المكان فارغا سوى من لوح واحد كتب عليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالتنا إليك، أيها الكائن الجديد، فاجعلها نصب عينيك، تجاوز خرابك إلى عمارك، وموتك إلى حياتك، وحزنك إلى فرحك، وشقاءك إلى سعادتك، لقد آن الأوان وأدركنا الزمان، ولم يعد لنا فوق هذه الأرض أى مكان.

سيكون لك نسل كثير، يملؤون الأرض طولا وعرضا، ويعمرونها، وسوف يجدون فى كل جهاتها ألواحا دوّنا فيها علومنا ومعارفنا وحكمتنا، عسى أن نهدى من ضل سواء السبيل.

أيها الكائن الخليفة، الحكمة ثم الحكمة ثم الحكمة ثم المعرفة، اجمع ما تعرف إلى معارفنا، وحكمتك إلى حكمتنا، وأفد من تجاربنا.

وما إن انتهى من قراءة اللوح حتى شعر بثقل يجثم فوق صدره، وشعر بدوار فى رأسه وأحس بقسوة الوحدة التى سيعانيها، وعظمة الأمانة التى سيحملها ويتحملها، جلس على الأرض وحمل فى كفه حفنة من التراب وشرد بعيدا، فقد كان التراب يدخله حالة من حالات الغيبوبة ينسى كل شيء، ويغيب فى الآفاق البعيدة يتصاعد ويتصاعد حتى يصل إلى الصفاء، ويتجلى الكون أمامه فيرى كل شيء، بل يمكن أن يرى من خلال العتمة التى داخل التراب، بعد أن يتحول إلى طين بامتزاجه مع الدمع، يمكنه أن يرى كل ما هو قادم.

ولما صحا من غيبوبته حمل لوحا فارغا وجلس يدون:

إنها البداية / وربما النهاية
الآن تكتمل الدروب / وتنزل الآيات
الآن تصبح هذه البرية / وحيدة
ونحن وحيدان / فى هذه البرية
سنعبر برزخ الوقت / وربما يعبرنا برزخ الوقت
سنعلق على رمال البرية / أحلامنا
أحلامنا التى ستمر ربما ولا تعرفنا
نحن وحيدان / فى هذه البرية
التى تشدنا إليها / تشدنا إلى برد الوحدة
طويلة كخيط الأفق / رحلتنا / وواسعة باتساع الماء
ومقلقة كزمن التيه

ثم حمل الألواح وعاد إلى المرأة التى كانت بانتظاره، وعندما قرأ عليها ما ترك الحكيم حزنت كثيرا، وكادت الدموع تنفر من عينيها إلا أنها شعرت بدموعها تحترق فى دمائها، وشعرت بحاجة إلى النوم فنامت ثم نام، حتى إذا مضى وقت غابتين وضعت توأمين أطلقا عليهما سحابة ومطر.

ثم مضى زمن آخر جاءهما شمس وقمر عندها شعر الرجل والمرأة أن الوحدة بدأت تغادرهما وأن التوائم الثلاثة ملؤوا عليهما هذه الأرض.

قال الرجل:

- ربنا أسبغ علينا نعمتك وامنحنا رضاك، ربنا.. سبعة أبحر تهنا وسبعة أبحر تعذبنا فامنحنا سبعة أبحر نكن فيها عبادا صالحين، ربنا بارك لنا فى ذريتنا واهدنا سواء السبيل ربنا تب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ثم غشى المرأة وما هو إلا وقت غابة حتى جاءهما ليل ونهار رابع توأمين، وبعد زمن ثلاث غابات جاءهما بحر وموجة، خامس توأمين، حتى

كان سادس توأمين فأطلقا عليه جبل وصخرة، ولما حملت بسابع توأمين حدث شيء غريب، أصيب الرجل بالدهشة عندما أخبرته الزوجة بحملها قال لها باستغراب:

- ولكن لم أمسسك فكيف حملت؟

فقالت:

- لست أدرى إنه أمر ربى.

فجاءه صوت الحكيم فى الحلم:

- لا تعجب من أمر ربك إنه التوأم الذى يشبه خلقك أولم يخلقك ربك ولم تكن شيئا، وسوف يكون شأنه كشأنك أنت وامرأتك أى سيكونان لبعضهما.

ولما قص على امرأته ما جاءه فى الحلم اطمأنت وشعرت بالراحة تتسرب فى دمائها، وبينما كانت فى الغابة وتحت إحدى الأشجار جاءها المخاض إلى جذع نخلة ووضعت فكان سابع توأمين سلام وأمان.

وبدأ الرجل يعلم أولاده ما تعلم من الحكمة والمعرفة وما جنى من علوم ومن معارف على هذه الأرض، وعلمهما كيف يخرجان من الأرض ما ينفعهما وكيف يرعون الماشية التى دجنها ليشربوا من لبنها ويأكلوا من لحمها ويلبسوا من جلدها وصوفها.

ومضى وقت أراد الرجل أن يكون له نسل كثير فزوج أديم من مطر، وسماء من سحابة ثم زوج شمس من نهار وليل من قمر ثم كان زمن فتزوج جبل من موجة، وبحر من صخرة، أما سلام وأمان فتزوجا من بعضهما عندها شعر الرجل أن الوقت بدا قاسيا عليه وشعر بدنو نهايته فجلس إلى زوجته وحدثها بما يحس فقالت له:

أرى فى عينيك كلاما كثيرا وأنت منذ زمن لم تحدثنى حديثا طويلا.

قال لها:

- لا أعرف ما الذى يحدث لى، أشعر وكأن الزمن يشارف على نهايته، وأن هذه الأرض سوف تضج بالنسل الكثير ولا أعرف ما الذى يمكن أن يحدث فيما بعد.

أحس وكأنى تعبت، وأحتاج إلى الراحة.. نعم أحتاج إلى الراحة أيتها المرأة بعد كل تلك الدهور.. إنها المرة الأولى التى أشعر بالتعب فيها..

كنت أظن أن الأولاد سيُدخلون السعادة إلى نفوسنا إلا أنهم حملوا معهم تعبا جديدا، فكل واحد يحمل فى نفسه أشياء كثيرة وإنى أقرأ فى عيونهم أحلاما تخيفنى أحيانا وأحيانا أطمئن إليها.

وما هى إلا غابات من الوقت حتى قرر الأولاد الانتشار فى جهات الأرض، رغبة منهم بالاستقلال، والإحساس بلذة الخلق والوجود، فقرر الأب أن يجمعهم قبل أن ينتشروا فى الأرض ليتمنى كل واحد منهم ما يريد.

قال لهم:

- هل تريدون ترك هذا المكان لترحلوا فى المسافات، أية رغبة تلك التى أيقظت فى أنفسكم لذة الرحيل؟

فأجابه الجميع: ثمة شيء ما يدفعنا للمعرفة والاستطلاع، لتكون لنا معارفنا وخصوصيتنا فى الأرض، سوى سلام وأمان فقد قالا:

- نحن لا نريد أن نغادر هذا المكان بل سنبقى هنا راضين بما أنعم الله علينا.

أما الأولاد الآخرون فكانوا يحبذون الرحيل لتحقيق غاباتهم التى يقيمون عليها. لذلك قال لهم الأب:

- أيها الأولاد الراحلون إذا أردتم الرحيل فليس لدى المقدرة على منعكم، ولو كانت لدى فما أنا بمانعكم عما تريدون، هى الأرض لكم جميعا. وجميعكم أخوة فيها، فلا تسلموا أموركم للوسواس، فتنشغلوا بيومكم عن غدكم، أوصيكم أن تكونوا معا، وأن تصنعوا خيرا، وإلا سوف تهلكون كما

هلك الذين من قبلكم، لا تطمعوا فى بعضكم، فلكلٍ ما يكمل به الآخرين، لا تضيقوا الأرض بما اتسعت، الأرض واسعة جدا تسعكم جميعا وأولادكم وخيرها وفير.

كونوا مع الله يكن الله معكم ويهيئ لكم من أمركم رشدا.

ثم قال:

أتمنى عليكم أن تظلوا حتى تطمئنوا إلى نسلكم ونشئكم، فقد شاء الله أن يكون نسل أخيكم سلام من الإناث، ونسلكم من الذكور حتى يأخذ كل ولد من أولادكم البكر أنثى من إناث سلام فتكتمل رابطة الأخوة والوجود.

فوافق الجميع على ما تمنى الأب، حتى إذا كان لهم ما كان، ومر من الوقت ما يكفى ليكون الرحيل. اجتمع بهم أبوهم للمرة الأخيرة قبل الرحيل، وقال لهم:

- لقد تمنيت عليكم، فلم تخالفوا لى أمنية ولا أمرا، والآن أسأل كل واحد منكم عن أمنية أدعوا الله له أن تتحقق.

فقال أديم:

- أتمنى الصلاح والرشاد لى ولأولادى من بعدى وأن أكون من الصالحين الذين تكشف أمامهم الرؤيا.

ثم قال سحاب: أريد أن يبقى ذكرى إلى يوم يبعثون.

أما شمس فقال: أريد أن تكون لى مملكة لا تغرب عنها الشمس.

أما ليل فقد قال: أريد أن يكون لى سلطان لا يحده حد وقوة لا تهان.

أما جبل فقد قال: أريد أن أكون فخرا لمن يذكرنى.

وقال بحر: أريد معرفة لا تنتهى ولا ينضب معينها.

وعندما جاء دور سلام وقف وقال: أريد حكمة لا تضل، تهدينى ومن بعدى سواء السبيل.

فدعا الأب أن تتحقق أمانى أولاده جميعا.

ثم قال: أدعوا لكم بالسلامة، فى طريقكم، والأمان فى مقركم، والهداية فى أموركم، والحكمة فى علومكم. فمن اهتدى بالحكمة لن يضل بعدها، فكونوا مع بعضكم وكونوا مع أخيكم سلام، كى تفلحوا فى الدنيا والآخرة.

وانتشر الأولاد فى الأرض، ولم يبق غير سلام وأمان فى كنف والديهما يرعيان الغنم ويتعلمان من أبويهما وينهلان من المعارف والحكمة.

واشتد الحزن على المرأة والرجل بعد فراق الأولاد فأقعدهما المرض والإرهاق والحنين.

ولم يستطع سلام ولا أمان أن يخففا عنهما، رغم المحبة التى يكنانها لهما باعتبارهما آخر التواءم وأصغر الأولاد. وكانا كما كان والداهما.

وعندما شعر الرجل بدنو الغاشية عليه وعلى امرأته نادى سلام وأمان، وخاطبهما بكلمات:

- ياولديّ، لقد مضى على وجودنا دهور كثيرة عرفنا فيها ما عرفنا، ورأينا ما رأينا، وخبرنا ما خبرنا، وها نحن نضع بين أيديكما كل معارفنا ونعلمكما مفاتيح الحكمة حتى إذا ضل أحد إخوتكم فاهدياه سواء السبيل، لقد زرع الله فى قلبيكما الحكمة إلى يوم الدين.

هذه الألواح أمانة بين أيديكما فحافظوا عليها، ولا تضنّوا على أحد بما فيها، إنها رسالة فانشروها فى الأرض هداية تسيرون فى هديها..

سيكون فى الأرض ضلال كثير وسوف يأتى من نسل أخوتكم من هم أشد ضلالا من البهائم ومن هم أشد قسوة من الحجارة وسوف تكون الحكمة التى بين أيديكما رسالة الهداية لمن يضل فمن أنكرها عليكما خسر خسرانا عظيما ومن اهتدى بهديها كان من الفائزين وسار فى الطريق إلى الفردوس الموعود.

كونا مع الحق وإن زين الباطل لكما، وكما أخبرنى الحكيم الذى غاب سوف يظهر أقوام من غبار مَنْ بادوا قبلنا على هذه الأرض يحملون الفساد

والعصيان والخراب، فلا يغرنكم حديثهم ولا تشدكم معارفهم إنهم من طينة الدمار فقاتلوهم حتى تطمئن الأرض وتنعم بالأمان.

ثم خاطب سلاما وقال:

وكما تقول الحكمة التى أدركتها، لن يكون لك نسل من الذكور إلا بأمر، فإذا لاح فى الأرض ما يحرفها إلى الضلال من الخطايا، حملت امرأتك بذكر، حتى إذا اكتملت حكمته، سيوحى إليه ويوحى إليك ليتجه إلى الجهات التى يقيم فيها إخوتك ونسلهم، وحيثما يحل يتزوج من أنثى وينشر الحكمة، ثم يتجه إلى أرض أخرى حتى إذا اكتملت رحلته إلى كل الجهات التى يسكنها إخوتك ونسلهم تكتمل رسالته، فيعود إليك برفقة نسائه.

وسوف يجد فى رحلته من يعينه على الحكمة، وسيجد من يحاول أن يسفك الضلال فى طريقه، فإذا غلبت الحكمةُ الضلال، اطمأنت روحه واطمأنت روحك، واطمأنت روحى، واطمأنت الأرض، وإذا غلب الضلال الحكمة، اهتزت الأرض وعم أرواحنا جميعا قلق مخيف، ورعب مقيم، حينها ستحمل امرأتك بطفل آخر لكنه لا يكمل غابة من الوقت بعد ولادته حتى يدخل فى الغاشية، فإذا اكتمل حملها ستة بطون ودخل كل من تلده فى غاشيته بعد غابة من الوقت من ولادته، حينها ستحمل زوجة ابنك بطفل يجمع حكمتى إلى حكمتك إلى حكمة أبيه إلى حكمة جميع إخوتك وإخوته، ويجمع صفاء الوجود، ونقاءه، ومعارفه، حينها ستدخل القصر بعدما يبلغ اكتماله، لتنام فى غاشيتك، لأنك أكملت ما كنت لأجله، بعدها تسود الحكمة دهرا، فتطمئن روح أبيه، ويدخل إلى قصر الغاشية فتطمئن روحه ويدخل هو الآخر فى غاشية الغياب.

ولكن ما تلبث أن تتكاثف الغبار، ولا خلاص حينها، لأن الحكمة ستتوارى كما تتوارى الشمس فى الغياب، ويمشى الكثيرون إلى جحيمهم وقد ظنوه فردوسا، سوى قلة يدركون الطريق إلى الفردوس، لكن لا طاقة

لديهم ليعيدوا سبيل الهداية، ولا سلطة لهم إلا على أنفسهم، فيدخلون فى عزلة الخلاص.

وقبل أن يتوارى الأب وزوجه فى الغياب قال:

أنزلتنا العجلة فى أمرنا فاصعدا بالحكمة والتأنى، وقد آن أوان نومنا استعدادا للعودة إلى فردوسنا، فإن غلبت الحكمة عليكم فإن الرشاد طريق يوصل إلى الخلود، واعلموا أنكم سترونا فى عالم الفردوس، أما إذا طفح الضلال، وضلت الحكمة، وانتشر الفساد فى الأرض، فاعلموا أننا دخلنا فى التيه الذى تدخلون، وسنتوه سبعة أبحر وسبعة دهور ونتعذب سبعة دهور حتى نعود إلى فردوسنا وسوف تبيد الأرض ومن عليها ولا ينجو إلا الصالحون الذين علموا موازين الأمور ومواثيق الدهور.

ثم أغلقا الباب عليهما وناما.

الدهور السبعة

"ومضى دهر على نوم الرجل وامرأته عرف فيه الأخوة جميعا ما لم يعرفوه من قبل من أسرار هذه الأرض.. وكشف كل واحد منهم عن ألواح فى الجهة التى رحل إليها.

وعندما شارف الدهر على الأفول شعر الإخوة بشوق للقاء أخيهم سلام، فرغم الأولاد والأحفاد وانتشارهم فى الجهات، إلا أن الوحدة كانت تطوق كل أخ من الإخوة فبدأ يساوره الحنين إلى رؤية إخوته ليجلسوا معا عند أخيهم سلام ويتحدثوا بما كان وما سيكون.

لكن ما لبث هذا الحنين أن تلاشى شيئا فشيئا، فغلب على الإخوة ما هم فيه من أحوال سوى أديم الذى شعر أن الدهر الذى مر عليه كان سّريعا، ورغم الأولاد الذين انتشروا فى بقاع الجهة التى استقر بها إلا أنه شعر بالوحدة وبدأ يساوره الحنين إلى إخوته فهو منذ لحظة الرحيل لا يعرف شيئا عن إخوته وما الذى فعلوه وما الذى حدث لهم.

وبينما كان جالسا إلى زوجته يحدثها عن هذا الكون وعن أسرار الأرض سألته:

- إلى أين ستنتهى الرحلة؟

قال لها:

- كما جاء فى الألواح التى نسختها من عند أبى أن الرحلة طويلة جدا، وللنهاية سبيلان إما عودة إلى الفردوس وإما إلى جحيم آخر لا نعرف كم سيطول.

فتنهدت وصمتت، وساد الصمت فترة نهض حينها أديم واتجه إلى حديقة قصره الذى بناه له بناؤون مبدعون حصّلوا علومهم من تنقيباتهم المعرفية عن ألواح الحكمة، التى زرعها الحكماء فى الجهات، إلى جانب تخيلاتهم، فجاء القصر تحفة بالزخرفة والإبداع، استخدمت فيه الكثير من الأدوات التى صممت لتساعد على إنجاز هذا العمل على أكمل وجه.

الحديقة التى كانت قرب القصر أيضا لم تخل من الإبداع ومن الترتيب والنظام، حيث قام على تأسيسها مزارعون من قوم أديم فقد جمعوا له جميع أنواع الورود والأشجار والنباتات ونحتوا له كرسيا كبيرا من الحجر فى إحدى جهاتها.

وما إن نهض أديم للاتجاه إلى الحديقة حتى سألته زوجه:

- إلى أين ؟

قال لها:

- أشعر بحاجة للجلوس مع نفسى، فثمة ما يقلقنى، ويحتاج إلى الوحدة والتأمل.

فصمتت المرأة وقد شعرت بالتعب الذى بدت ملامحه على وجه زوجها.. لكنها لم تستطع أن تصرّح له بذلك، أما أديم فقد نهض واتجه إلى الحديقة بخطى تظهر مدى الإرهاق النفسى الذى يعانيه.

لم يتجه إلى الكرسى الحجرى وإنما جلس إلى جذع شجرة، وأسند ظهره إليها.. ألقى نظرة إلى البعيد، ثم رفع رأسه إلى الأعلى، تذكر أباه وإخوته، أحس برغبة شديدة للقاء أخيه سلام والحديث معه لعله يدرك الحكمة بكمالها، والرؤيا بجلالها، وتذكر أخته أمان التى كانت تُدخل الطمأنينة إلى قلبه كلما نظر فى عينيها.

أحس بروحه تنتفض من بين جنبيه لتحلق فى البعيد، كطائر من نور، إنها المرة الأولى التى يحاصره فيها الشوق إلى درجة الغياب فى الحنين المبلل بالبكاء.

حاول أن يقاوم ذلك الحنين الجارف إلا أنه فشل، تأمل السماء فرأى الشمس بدأت تسير إلى مستقرها، أحس بخوف يتسلل إلى نفسه، أغمض عينيه محاولا البحث فى ذاته عن سر هذا الخوف، أو لعله يكشف ما يمكن

أن يكون، هكذا اعتاد أن يفعل تطبيقا لحكمة الكشف التى قرأها فى أحد الألواح المحفوظة لديه، حيث تمكنه هذه الحالة من قراءة العتمة التى يواجهها عندما يغمض عينيه، سحب نفسا عميقا وهو مغمض العينين، شعر وكأن نافذة واسعة قد فتحت فى جدار العتمة خلف عينيه، خمن.. لعله أمر عظيم فجاءه صوت يشبه صوت أبيه يقول له:

الكوكب الذى كوّره الإله لنا، سيهتز هزة عظيمة، سيهتز لأن دما سال على طينه. فانكسرت الفضيلة، وانبجس الضلال.

الكوكب الذى لم يكن فيه غير الماء والهواء، أريقت فيه الدماء، الدماء التى كانت تنبض بالحنين، أصبحت تنبض بالحزن والألم والأنين.

فتح عينيه وكأنه فى قبضة كابوس مرعب، هز رأسه يمنة ويسرة ليتأكد له الخروج من الكابوس، وأن الأمر لا يعدو كونه حلما مزعجا، لكنه أحس بالجهات تضيق عليه، والهواء لم يعد نقيا كما ألفه، فثمة رائحة لم تكن على هذا الكوكب من قبل، لا شك أن ثمة حادثا قد حدث، بحث عن الهدهد فلم يره فى الحديقة، فسأل عنه بغضب ونفاد صبر قالوا له: إنه فى رحلة استكشافية بعيدة وقد اقتربت عودته، فازداد غضب أديم، لكنه هدأ وراح ينتظر الهدهد، فلربما يحمل من الأخبار ما يكشف له غموض هذا الكابوس وغموض هذه الرائحة التى تلبست الهواء.

وعندما حضر الهدهد، وقف بين يدى أديم مذعورا، وقد تلبسه رعب عظيم وكاد يسقط على الأرض مغشيا عليه، ليس خوفا من تأخره فى الرحلة، وإنما من هول ما رأى فى تلك الرحلة.

فسأله أديم:

أين كنت أيها الكائن، وكيف تغادر دون علم منى، أم نسيت نفسك أنك فى حديقة يسود فيها النظام.

فارتعد الهدهد وارتعش وقال متوسلا:

- أرجوك يا سيدى.. أرجوك أن تعفو عنى هذه المرة.. ودعنى أقصصْ عليك ما رأيت، إنى رأيت أمرا عجبا.

- إذا كان فى الأمر ما يستدعى غيابك فلسوف أعفو عنك وإلا فسأعاقبك عقابا شديدا، هات أخبرنى.. ما الأمر العجب الذى رأيت؟

- يا سيدى بينما كنت أطير بعيدا فى هذه الأرض، ضللت الطريق ولم أهتد إلا بعد جهد جهيد.. وبينما كنت أبحث عن الطريق الصحيحة وجدت جبلين كبيرين حاولت أن أرتفع وأرتفع فوجدت كائنات كالغبار.. يأكلون التراب ويلحسون الصخر حتى يذوب، وأعتقد أنهم سيتجهون باتجاهنا.

- ألم يرك أحد منهم؟

- لقد وليت فرارا يا سيدى إلى أن اهتديت إلى الطريق.

- هل تعرف العودة إلى ذلك المكان إذا أردنا ذلك؟

- أستطيع أن أرشدك إليه يا سيدى.

نهض أديم واتجه إلى القصر. فقد شعر بشيء غريب ينتابه وخوف مما سيحدث فى هذه الأرض، جلس وحيدا يتأمل لكنه أحس بقلق ورغبة للخروج إلى الغابة، فمضى إلى الغابة وهناك جلس إلى جذع شجرة.. تذكر أباه وإخوته وشده الشوق إلى أخيه سلام وأخته أمان، مرة أخرى، ولعل فى هذه المرة اشتد الحنين فى روحه حتى كاد يلهبها، فكم يود أن يحكى لأخيه سلام ما رأى الهدهد، عساه يفسر له ذلك، ويهديه سبيلا يكمن فيه الخلاص ولو بعد حين.

شهق بعمق ثم زفر بحرارة:

- آه كم من الشوق فى روحى إلى حكمتك يا سلام، كم أنا بحاجة إليك، الدهور تسرع، ونحن لم نستطع أن نوطن الحكمة فى أرضنا، لم نستطع أن ننشئ النشء على ما جاء فى الألواح.

إنها المرة الأولى بعد مضى دهر عليه فى الرحلة ينتابه مثل هذا الشعور.
وما إن غفى قليلا حتى رأى أباه حزينا سأله عن سبب حزنه قال له:

- أرى الفردوس يغلق أبوابه. وأرى التيه قادما بعد ستة دهور.. ولسوف يحمل الزمن إليكم كائنات كالغبار تدمر كل شيء إنها أعمالكم التى ضلت حكمتها، فأيقظت غبار من بادوا.

- ولكن يا أبى فعلنا ما أمرتنا به.

- فعلت أنت ولكن هل تعرف ما فعل إخوتك؟

فصمت ثم أجاب:

- لا أعرف ولكن ما الذى فعلوه؟

- لم يحسنوا الدخول فى باب الحكمة، فأخذت نسلهم الدنيا بما فيها، وظنوا أنهم من الخالدين، فكان من نسلهم مَنْ أضلوا السبيل، ومَنْ راح ينحت التماثيل على هيئته، فعبدها نسله، وكأنه إله، لقد نسوا الكثير مما أوصيتهم به، ولم يمض سوى دهر واحد على نومى فما بالك لو مضت الستة دهور؟ لا شك سيحل بكم الدمار.. يا لمأساة هذا الكوكب.

- ولكن يا أبى حققنا من المعارف والاكتشافات الكثير وعرفنا أسرار ما خفى عنا بعملنا وجهدنا.

- نسيتم أن تكتشفوا أنفسكم منذ قررتم الرحيل والانتشار قبل اكتمال الحكمة، سعيتم وراء ما تمنيتم فكان لكم ذلك، ولكن لم تسعوا إلى ما يحفظ لكم تلك الأمانى من الزوال. ظننتم أن ما فعلتموه على علم منكم، ولم تفطنوا أنها المشيئة التى هيأت لكم ذلك، فقليل من نسلكم من هو شاكر، وقليل من نسلكم من كان على قدر الفتنة التى فتن بها.

ثم قال:

- دعونى أنم فلا أشعر برغبة فى الاستيقاظ حتى بعد انقضاء الدهور السبعة، وكم أتمنى لو أغور فى التراب فلا أرى ما فعلتم وما سوف تفعلون،

ليتكم تمنيتم الحكمة كأخيكم سلام، فالحكمة هى الخلود، وما تمنيتموه هو الفناء، هو الزوال. هو الزوال، هو الزوال.

- سنصلح ما فسد.

- سيفسد بعض نسلكم ما هو صالح. والوحيد الذى يحاول إصلاح ما فسد هو ونسله ويكشف عن ذاته ونفسه هو أخوكم سلام، ولكن للأسف لم تستعينوا بحكمته على أمور دنياكم، أراد أن يشدكم إلى الحكمة، وقد أمضى دهره يدون المعارف، ويجعلها فى ألواح، ليرسلها إليكم حين تحين ساعة ذلك. عساكم تخرجون مما أنتم فيه بعد دهر من الضلال.

ثم غاب الأب فنادى أديم على أبيه، لكنه لم يسمع سوى صدى صوته فاشتد الحزن عليه، فبكى وبكى، ثم مشى فى الغابة وحيدا، حتى رأى فى البعيد ضبابا يتكاثف، وما هى إلا لحظات حتى اقترب الضباب منه وأحاط به كهالة من الكثافة، فلم يعد يرى شيئا، شعر بحالة من الاختناق والدوران فى التيه، أراد أن يصرخ لكن صوته اختفى أيضا، شعر بيد تربت على كتفه من الخلف، انتابه بادئ الأمر شيء من الخوف، التفت وهو يكاد لا يرى شيئا قال بصوت منخفض:

- من ؟

جاءه الصوت:

- ماذا بك؟ وما الذى أوقع الخوف والهلع فى قلبك، وسلبك الطمأنينة، كيف تسلل الفزع إلى حياتك؟

وشيئا فشيئا اتضحت الرؤيا فرأى أخاه سلاما يخرج من قلب الضباب، أراد أن يضمه إلى صدره لكنه أمسك بالضباب فصرخ:

- سلام سلام، أين ذهبت أنا بحاجة إليك أيها الأخ العزيز، أيها الطاهر الذى لم تأخذك الدنيا كما أخذتنا، لم تلوثك النزوات كما لوثتنا.. أيها الحكيم سلام، لا تغادرنى أرجوك، أنا بحاجة إليك عسانى أرى حقيقة ما

يحدث قبل أن نضل سواء السبيل. لقد فتنا، وأربكتنا الفتنة، حتى شارفنا على ما لا تحمد عقباه.

فجاءه صوت أخيه سلام حزينا:

ـ لقد كان ما أنبأنى به أبى، فرأيت ما يجعل الطفل أشيب، وما يسقط النجوم على أرضنا، وما يقلب البحار علينا، لقد رأيت الدماء تسيل فى أرض إخوتك، فكان من نسلهم من أغوته نفسه فامتدت يده لقتل أبيه، لقد دخل إخوتك فى الغاشية، وفسد نسلهم إلا قليلا، فطغى من فسد على الصالحين، فهبت غبار من بادوا، والتقت بغبار آثامهم، ورأيت طوفانا يتفجر من أرضهم، فأباد منهم ما أباد، ولم يرجعوا عن غيهم، أخذتهم الفتنة، وأغواهم الضلال، وتناسل الشيطان فى أصلابهم، فابتكروا آلات الموت، قبل أن ينهضوا بالحياة، فلا بد من إرسال من يهديهم سواء السبيل، وما إن يكتمل القمر، أعد العدة ويمم شطر أرضى، فإذا بلغتها يكتمل حمل زوجتى تسعة أقمار، لتكون بعدها النبوءة، والإشارة التى حدثنى بها أبى.

فتح عينيه فرأى زوجته تجلس قربه مذعورة، وعندما شاهد حالة الذعر التى هى فيها سألها:

ـ ما بك ؟

قالت:

ـ ما بى من شيء، ولكن أنت ماذا بك؟ فقد كنت تصرخ وتبكى، ثم تصمت، حاولت إيقاظك لكن لم أفلح، فجلست مذعورة خوفا عليك، أنتظر استيقاظك لأطمئن على حالك واستقرار روحك.

أجابها بذعر وحزن:

ـ كان حلما فظيعا.

ـ أى حلم ؟

ـ الذى رأيته.

- وماذا رأيت ؟

- قبل أن أقص عليك الحلم أعدى لى راحلة السفر لأيمم شطر أخى سلام حين اكتمال القمر.

- ولِمَ السفر ؟

- لأبلغ حكمة ما رأيت عند أخى سلام، فلعلنا نمسح وجه الأرض من دم إخوتنا الذين ضل نسلهم.

- وهل ستسافر بدونى ؟

- أنت رحلتى التى لا تنتهى ،كيف أرحل بدونك؟

فابتسمت ونهضت لتعد راحلة السفر بينما ظل أديم يتذكر الحلم وقد لف روحه شوق عظيم لملاقاة أخيه سلام.

●●●

ومضى أديم فى رحلته الطويلة باتجاه أرض أبيه وأخيه سلام، وفى روحه قلق واضطراب، كان يشعر بالمسافات تطول، وكأن الطريق لا تريد أن تنتهى، أو تشير إلى النهاية، قال فى نفسه:

- أيتها الطريق أوصلينى إلى فطرتى، أوصلينى إلى حكمتى، أوصلينى إلى خلاصى، لا توسعى قلقى واضطرابى، وتضيقى حلمى.

وعندما لاحظت زوجته حالة القلق التى هو فيها سألته:

- لماذا اخترت البعير لرحلتنا هذه أليست الخيل أسرع؟

قال لها:

- صحيح أن الخيل أسرع، ولكن كما جاء فى اللوح الذى وجدناه فى أرضنا والذى دونه الحكيم.. أن الإبل هى أشد تحملا من جميع الكائنات الأخرى، وأكثر صبرا، وهى الأصلح لمثل هذه الرحلات الطويلة، وكما أشار الحكيم أن قومه الذين بادوا كانوا يستخدمونها للغاية نفسها أما الخيل فقد كانت وسيلتهم للحرب والغزو.

فقالت له:

- أنت أعلم منى بهذه الأمور.

ثم صمتت وانطلقا....

وكان ليل فاستقرا فى مكان ظليل يستريحان من عناء السفر، ويستعدان للنوم، عسى أن تطمئن روحاهما فيه... جلست الزوجة قرب أديم وقالت:

- هل لدى الأقوام الذين تحدث عنهم الحكيم فى لوحه نساء بمثل جمالي؟

فابتسم أديم وقد أدرك ما ترمى إليه، فمد كفه ومسح على شعرها، وقربها منه أكثر حتى التصقا وقال:

- ولماذا هذا السؤال؟ فتلك الأقوام بادت وانتهى أمرها، أم إن المرأة هى المرأة.. تغار حتى من الظلال، ومن أية امرأة أخرى حتى ولو كانت من الخيال ؟

فنظرت فى عينيه بفتنة حتى كاد يأخذها إليه برغبة عارمة وقالت:

- إنه الدلال يا زوجى العزيز، الدلال الذى يجعل المرأة فاتنة أكثر.. وكل النساء مهما علا شأنهن يحببن سماع كلمات تداعب غرورهن وتطرى على جمالهن وفتنتهن.. فالمرأة تؤخذ بالكلام الجميل حد الاحتراق كما تؤخذ الفراشة بالنار ولو احترقت.

- أية فاتنة أنت، وجودك فى الوجود يوقظ العدم من عدمه، لتنهض الحياة كما لم تكن من قبل.

قالت له:

- احكِ لى حكاية من حكايات العشق لدى الأقوام البائدة.

- أنت ترمين إلى شيء آخر، أما كفاك كل الكلام الذى قلته لك؟

- المرأة لا ترتوى من الكلام الجميل، إنه زادها وزاد جمالها، فإذا لم يكلمها أحد بهذا الكلام تهرم، وتشيخ وتفقد كل شيء، وربما تموت سريعا،

فأنت تمنحنى الحياة بكل كلمة تقولها لى، وتبعث فى فتنتى فتنة أخرى أكثر إشراقا، وتضفى على جمالى رونقا من السحر، وإذا كان كلامك يمنحنى الحياة كذلك يمنحك الحياة بوجودى، ودون ذلك تصدأ أحلامنا وخيالنا ووجودنا.

- ما هذه الفلسفة الجديدة التى لم أقرأ مثلها لا فى ألواح الأقوام البائدة ولا فى الألواح التى دونها فلاسفتنا.

- إنها فلسفتى الخاصة.

- آه من فلسفتك التى تنهض من بكر الفتنة.

وعندها أدرك أن لا نوم هذه الليلة، فالمرأة محمومة بالكلام والفتنة، ولا بد أن ينقاد لرغبتها ويحكى لها، لأنها أيقظت فى نفسه الغواية فأرخى كفه على صدرها وقال:

- سأحكى لك حكاية عاشقين من عشاق تلك الأقوام ولكن بشرط أن تنامى بعدها، لنفضى إلى بعضنا بما يقلق أرواحنا ودماغا ونشوتنا.

- هل تريد التخلص من كلامى أم أنها الرغبة التى تطفئ الكلام وتوقظ الحرائق فى الدماء؟

- أريد أن أتأملك، أن أسافر فى عينيك، أن أنسى فى جسدك كل شيء فى هذه الأرض، فأنت بوابة الفردوس، وعيناك تختصران دهورا من التيه.

شعرت بكف من السحر تعرى جسدها، وتسكب عليه غيوما من العطر، ألقت رأسها فى حضن زوجها، وراحت تنصت للحكاية.

فقال أديم:

- كان ذلك قبل مئات الدهور التى مضت قبل أن تتكون هذه الأرض.

فقاطعته:

- وهل كانت لهم أرض غير هذه الأرض؟

فأجابها:

- طبعا، وجاء ذلك فى ألواح الحكمة.

وتابع الحكاية:

- ولقد مر أولئك الأقوام بثلاثة مراحل كما جاء فى الألواح التى تروى تاريخهم. مرحلة الانقسام ومرحلة التيه، ومرحلة الالتحام.

فى البدء كانوا متحدين فلم يكن بينهم نساء ولا رجال بل كانوا كائنات مكتملة بذاتها، لها من الأرجل أربع ومن الأيدى أربع ومن العيون أربع، ولكل كائن أنفان وفمان وقلبان ينبضان، فابتسمت الزوجة وتساءلت:

- كان شكلهم يثير الضحك.

- لكنهم كانوا من أرقى الكائنات فى زمانهم، وأنت تضحكين لأنك جئت فى الزمن الأرقى.

- إذن كيف كانوا يحبون ويتزوجون ويتناسلون؟

- مرت دهور عليهم كانوا ينقسمون فيها، فينقسم كل كائن إلى كائنين، كائن يتجه جهة السهول، وكائن يتجه جهة الجبال، فالذى يتجه إلى السهول تغلب رقته عليه فتكتمل أنوثته فيه، وتلقى الطبيعة عليه من فتنتها فتنة وجمالا، أما الكائن الذى يتجه نحو الجبال فتغلب عليه الشدة والقسوة فتكتمل رجولته.

وتمضى غابات وغابات من الوقت، يبحث فيها كل كائن عن نصفه الذى تاه عنه، وغالبا ما يبحث الكائن الذى اتجه نحو الجبال عن كائن السهول، لأنه يخشى أن تفتته القسوة إذا هو لم يلتحم برقة وعذوبة نصفه التائه عنه، وإذا حدث والتحم بنصف غير نصفه الأصل، لم يلتحم به التحاما كاملا، بل يكاد ينفصل عنه مرة أخرى حتى يدخل فى التيه، ليجد نصفه الذى تاه عنه، ولو أدى ذلك إلى تلاشيه فى التيه والغياب.

ومضت أزمنة طويلة بلغ الإرهاق بهم مبلغا عظيما من حالة الانقسام والتيه فتاه الجميع وتشتتوا فى الأرض.

وفى تلك الدهور التى أطلق عليها ناسخ اللوح اسم (دهور التيه) كانت قصص الحب التى لم تشبهها قصص من قبل ومن بعد، فكان كل كائن يبحث عن نصفه التائه حتى يجده فتهبط عليه السعادة المطلقة، ويعود الكائنان إلى الاتحاد مرة أخرى بعد أن ينجبا سبعة كائنات تشبه وجودهم الأول باكتماله.

فسألته الزوجة:

- وهل كان الحكيم مثلهم؟

- طبعا كان مثلهم، لكن حكمته غلبت على الفتنة فاستوى بنصفه فيه، دون أن ينقسم، حتى إذا بلغت حكمته حدها الأقصى تحول كائنا يشبه تكويننا، لكنه أبعد ما يكون عن الفتنة، لأن حكمته أمسكت فتنته، وكذلك الحكماء الذين كانوا معه.

- ولماذا بادت تلك الأقوام؟

- قصة نهايتهم قصة طويلة، أما الآن فسأقص عليك قصة العاشقين وكيف عانيا فى البحث عن بعضهما، فقد دون الحكيم تفاصيل تلك القصة فى أحد ألواحه.

يقول الحكيم:

كان زمن الانقسام لا يطول، فمجرد أن تمر غابة من الوقت، يبدأ الكائن بالانقسام، ليدخل فى التيه، ولحظة الانقسام لا تطول سوى قمرين من الوقت فإذا طالت يشير ذلك إلى شدة العشق والهيام فى الكائنين المتحدين، ولم يحدث هذا الأمر إلا نادرا وإذا ما حدث لكائنين كان تيههما تيها عظيما.

وذات يوم نام أحد الكائنات المكتملة نوما طويلا، ولم يعرف أحد سبب هذا النوم الطويل فقد انقضى زمن طويل والكائن نائم بينما جميع الكائنات تنقسم فى وقتها وتدخل تيهها.

ولما طال نومه، فقد الجميع الأمل بانقسامه، وسلموا بالأمر كمعجزة تحدث كل زمن بينهم فبنوا عليه معبدا وصارت الكائنات تأتى لتشاهد هذا الكائن الغريب الذى يأبى الانقسام، ومضى وقت طويل حتى سمع صوت قوى من داخل المعبد اهتزت له الحجارة والكائنات، عندها عرف الجميع أن الانقسام قد بدأ أخيرا للكائن الغائب فى ذاته، وأن تيها عظيما أشد من تيه كل الكائنات سوف يحل بالكائنين المنقسمين.

وعندما تاه الكائن المنقسم نحو السهول أبى الكائن الجبلى الخروج من المعبد، وكان يبكى ويبكى، وراح يدون آلامه وأشواقه وقلق روحه، وحلمه فى اللقاء الذى قد يكون بعد تيه طويل.

- وهل التقى بعدها بنصفه؟

- طبعا التقى ولكن بعدما أمضى فى التيه زمنا لم يحتمله كائن مثله، فملأ الأرض بالألواح التى تحمل حنينه ووجده.. كانت ألواحا مليئة بالحب العظيم الذى لم يحدث مثله من قبل ولن يحدث مثله من بعد.

وأصبح أسطورة تتحدث عنها الأقوام بعده ويتناقلونها ويتناقلون ما كتب فيها حتى وصلت إلى الحكيم فدونها، وقدمها لنا كحالة من المعرفة التى نحتاجها، وحالة من العشق نتعلم منها ونهتدى بها.

فقالت له الزوجة:

- هات أكمل أيها الرجل.

كتب ذلك الكائن فى أول يوم يصحو فيه على فقدان نصفه ما سماه (مزمورا) ثم كتب مزامير أخرى حتى بلغت مزاميره السبعة فراح ينسخها ويضعها فى كل الجهات لعلها ترشد نصفه إليه، وقد سمى الحكيم ما كتبه ذلك الكائن (هكذا تكلم الكائن المشطور).

فأنصتت المرأة إلى المزامير التى راح يرويها لها أديم:

مزمور١

بعيدا هوى نصفى
الذى كنت منه وفيه
نصفى الذى وجدت معه لنكتمل
كما تكتمل الكرة
نصفى الذى توارى كما يتوارى الماء خلف الزرقة
توارى فى غياهب السكون
وسقطت فى غياهب الحنين
بعيدا هوى نصفى
بعيدا ترمل الهواء
الهواء الذى جمعنا جمعا
الهواء الذى حملنا بيقيننا
وأنزلنا فى الشتات
فى الشتات وزع أرواحنا
لكأنما الماء يخرج من مساماتنا
خرجنا من بعضنا
لكأنما طين أبدى يفصل الماء المتوحد فينا
لكأنما سور من القسوة مزقنا
لكأنما شاهق يلامس السماء ارتفع بيننا
الفراغ يحيط بنا
والضياع
والمتاهة تلفنا بأفعوانها
المتاهة التى لم تكن قبلنا
المتاهة التى لم تكتمل إلا بنا

المتاهة التى أدخلتنا سراديبها الموحشة
بعيدا بعيدا
النداء الذى أطلقنا
يذوب فى الصمت
الكلمات التى كانت توحد بيننا
كالماء الذى يوحد الفراغ
أصبحت حروفا موزعة فى الجهات
ندور كدوائر حجر أسقط فى الماء
وغير التيه
لم تحفظ أسماؤنا
كقطرة ماء منزلة من الأعالى
وجدنا
وكقطرة ماء وزعتها الصدمة توزعنا
وكصرخة وزعها الصدى
تناثرت أوراقنا
البرية واسعة جدا
البرية التى ضمت كمال روحنا
البرية اتسعت بشقينا
انشطرت كما لو برق تخطفها إلى جهاته
والمسافات لا ترى
وغير انتماءات للضلال
لم نكن
ولم نكن فى الظل غير احتمالات
لصفير رياح خاوية

أسقطنا رهاننا فى الهاوية
هاوية واسعة شاسعة
لا ترجع منها راجعة
ولا تولد فيها صيحة جامعة
هاوية غامضة عارية
فوق أسرارنا جاثية
ليس لنا فيها بقاء
أو فضاء أو نداء
أو قطوف دانية
شطرتنا
فأصبحت أرواحنا ذاوية
على أحزانها نائمة
فى تيهها متوارية

مزمور٢

أيها الغارب
يا شطرى المشطور منى
يا نصفى المسلوخ عنى
إليك كل القصائد
التى سأكتبها
وإليك كل الرمال
التى جمعتها
والأنهار
والبحار

والنجوم
والرياح
والشجر
أيها المتباعد
كتباعد القطرة
عن أمها الغيمة
كتباعد الغيمة
عن بحرها الأول
كتباعد القاع إلى قاعه
والمدى إلى أفقه
أيها المتباعد
عن دمى
يا وجهى الذى لا أراه
ولا يعود إلا بعد صمت طويل طويل
ولا طاقة لدى على الصمت
والرحيل يلف روحى الهاربة
يا نصفى الذى ابتكرت من أجله أبجدية الطين
ليعيدنى إليه
فيفضى الحنين إلى الحنين
يا نصفى الذى من دونه ينطفيء فى روحى اليقين

مزمور٣

ها أنا أحمل كتابى
أحمل ضلالى

وحكمتى الخائبة
وخيبتى التى لم يكن مثلها
ولم أجد بعد من يعيننى
عليّ
أو يحمل عنى
قسطا من خيبتى التى لم يكن
مثلها
ولم أكن غيرها
أية ستكون دون أن نلتقي
لقد فقد كل شيء عذوبته الأولى
فقدت روحى نداوة بوحها
كيف لى أن أرتب وجودى دون أن ألقاك
ودون أن أفرد أسرارى على كفيك
لأقول كم أهواك

مزمور٤

الحنين يكبر
كلما اتسعت المسافة
وكلما ابتعد البعد
اقتربت الجهات من بعضها
إنه لشيء محزن جدا
ألا نهتدى
إلى خيبة واحدة
كيف لى أن أحتمل سلاسل الغياب

وكيف لى أن أفسر أشواقى
لأكشف فى مرايای الحجاب
يا نصفى الطافح فى غيابه
إن لم أهتد إليك
سيهتدى إلىَّ السراب
روحى توسدها الخراب

مزمور٥

البعد المتلاشى فى ذاته
اقتراب فى المطلق
وتوحد فى التلاشى
يا شطرى المتلاشى
فى بعده
أنا شطرك الذى لا يمل من انتظارك
كى تعود من التلاشى
المتلاشى فى التلاشى
ومن البعد المبتعد
فى البعيد

مزمور٦

أيها التائه
المارأى وحدتى
والمارأى عويل روحى
عندما انسلخت منى

....

تركتنى أدور حولى كالغبار
عن رحم البداية أفتش
عنك فى متاهة الماء أفتش
أيها التائه
يا شطرى المولود منى
والمسلوخ عنى
أعنى
كى أحتمل الوحشة
التى تثقل روحى
كى أتنقل فى ردهات الوجود
فى ردهات الوجود أسير
عن طريقك الذى فيه رحلت
أفتش
عن خطاك التى تركتها
فوق الرمل أفتش
أحصى رمال الصحارى
عسى أن أجد أثرا لك فيها
يا شطرى المارأى
وجهى المنطوى فى العتمة
المارأى حزنى وضلالى
المارأى
دمى فى المسارب ينداح
بدونك أشعر بالياس

إلى كل جسدى يمتد
أشعر بالنهاية
ترابط لى فى كل مكان
فى كل مكان أفتش
عن صوتك
عن رائحتك
عن أغنية
حفظها الهواء لى كى أراك
بدونك
ليس لشيء أى معنى
وأية قصيدة
لا تجد طريقها إلى ذاتها
بدونك
يتلاشى وجودى
ولا تعرف الأشياء أسماءها
بدونك
يكتمل الضلال
وكل شيء
يضل عن سواه
حتى أنا عنى
حتى الهوى عن هواه
والمدى عن مداه
والصدى عن صداه

مزمور٧

أيها الكائن الوحيد
الشطر الوحيد الذى ضل
أنا الكائن المتعب
لا آنس إلى شيء
قبل أن أجد
السبيل الذى فيه تاه
الذى يعيدنى إليه
مهما توارى هواه
أنا الكائن القلق
الحزين
الشاهد الوحيد على ضلالى
وخيبتى
أدعوك أيها الشطر
الذى يرانى فيه كما أراه
أن تعيدك خيبتى
فى الطريق إليك
يا أنثاى
يا اكتمالى
ويا رحلتى
التى بدأها التيه
ارجع فدموعى
لم تعد تعيننى على الصمت
والصبر

والطمأنينة
واليقين
إننى لجد حزين
وجد متعب
أعنىً على التوحد فيك
على التلاشى
فى صفائك
على التوارى فى ذاتك المتوارية
على الانتهاء فيك
يا شطرى الذى
حتى أراك
سأظل أغنيك

وبعدما انتهى أديم من حكاية العاشقين بلغت به الرغبة حدا عظيما، وبلغت الفتنة بزوجته حدا من الغواية، والعذوبة فضمها إليه وقال:

أعريك منك
لألقى عليك وشاح الخيال
لأهبط من أغنيات النبوءة
فى جسد طافح بالكمال
أعريك كى تلبسى لى قميص الغواية
كى تسكنى بى كسرد الحكاية
أو كالقصيدة حين أراودها عن رؤاها
فأغشاك كالظل
حتى تذوب الظلال
كأنك يا امرأة توقظين الجنون

وتحتفلين كثيرا بفتنة عريك
حتى تكونى
وحتى أكون
وكى تبلغى نهر صمتى
بحكمة عريك حد المحال
أعريك منك
لأبلغ فى عريك التيه
أبلغ ما بين نهديك
ما بين بينك
كل دروب الضلال
أعريك كى أصطفيك لذاتى
وكى تصطفيك لأسرارها كلماتى
وكى يطفح الكون بالصلوات
أعريك كى توقظى فى الجمال الجمال

ثم غشيها وناما حتى كان نهار وليل ونهار، نهضا بعدها ليتابعا الرحلة نحو أرض سلام.

●●●

سارا طويلا، حتى بلغا كهفا أغلقته صخرة عظيمة، توقفا عنده، وكان الفضول أكبر من أن يغادرا المكان دون الكشف عن أسرار هذا الكهف، وبينما كان أديم يفكر بسبيل لإزاحة تلك الصخرة، أحس بدوار في رأسه، فجلس مستعينا بزوجته، وشعر برغبة للنوم، فنام ونامت الزوجة قربه، وبين الحلم واليقظة شعر بالصخرة تنزاح قليلا قليلا، نهضت روحه فى الحلم لتدخل فى عتمة الكهف، وحين استوت فى العتمة، سمع صوتا من غياهب الكهف:

- أنت فى كهف الكشف، اتجه إلى اليمن تعثر على ألواح الآتى، احملها كى ترى، ما سوف تحمله الدهور إليك، اغتسل بعتمتى قبل أن تخرج كى لا تغلق الصخرة بابى، فتتلاشى فى غيابى.

استيقظ أديم وهو فى حالة من الهلع العظيم، وجد زوجته قربه، والصخرة مازالت تغلق باب الكهف، لكنه انتبه إلى ألواح قربه، أيقظ زوجته، سألها عن هذه الألواح، فلم تعرف عنها شيئا، قالت نمت كما نمت أنت، قال لها:

- ربما الحلم انقلب يقينا.

قالت:

- عن أى حلم تتحدث؟

قال:

- رأيتنى أدخل الكهف وأغتسل بعتمته، بعد أن حملت الألواح.

قالت:

- ولكنك كنت متعبا ونائما، من أثر الدوار.

قال:

- لا أعرف ولكن الألواح التى قربى تشير إلى سر لم يكن فى الحلم ولا فى اليقظة، ربما أخذتنى غاشية الرؤيا فانسللت من ذاتى لأدخل فى غياهب الكهف.

قالت:

- هات اقرأ ما فى الألواح.

فبدأ يقرأ عليها، وحالة من الذهول تلفهما معا.

دهر الغوايات

وكان الذى كان

حتى غوى ظلنا واستكان

على رمله فهوى
واستوى فى الرمال وحيدا
فدار الزمان
وتاه المكان
كأن الغواية قد أمسكت ظلنا
ثم أغوتنا بالدم
حتى خسرنا الرهان
خسرنا الرهان على سرنا
قد خسرنا الرهان
لم تعد لنا طاقة
كى نعيد تشكيل فطرتنا
ضيعتنا المتاهات التى أربكت أرواحنا
أطعنا الغواية فاشتدت عتمة الطريق علينا
وأغطشت أرواحنا سحب الخيبة
الخيبة أصبحت أوسع من الحلم
الخيبة هى دليلنا الوحيد فى غفلة الروح

دهر الطوفان

أضعنا يقين اليقين
وحارت بنا أغنيات الوجود
ولم ننتبه للحنين
ولم ننتبه للنشيد
ولم ننتبه أننا فى التوجس يغتالنا الصمت
ويغرقنا فى الجنون الجنون

فآل إلينا سراب بعيد
غرقنا ونحن نصلى لأوثاننا خائفين
ومن خوفنا تهنا عما نريد
وكان الذى كان
حتى تلامح طيف الأمان
وكان الذى طاف وهما
ومن وهم أطيافه نستزيد
ومن وهم أطيافه نستزيد

دهرالأمان

قصير كعمر فراشة
كقطرة ماء وحيدة
سرت فى رمال الصحارى وغابت
قصير كطرفة عين
قصير قصير
كأن الذى كان ما بين بين
قصير قصير
كأنّا بلا أين فى اللا وجود
كأنَّا بلا أين

دهرالدماء

وكان الذى كان
نار وفيض دماء
ولا ماء كى نغسل الروح فينا من الموت

لا ماء

لا ماء لا ماء

كى نستعير مراياه

بعض رجاء

فلا ماء لا ماء

نأكل أحلامنا ثم نمضى

نلوث حتى الهواء

دماء دماء

دماء دماء

دهر الدمار

وكان الذى كان

دمار يوافيه ألف دمار

ونار ستحرقنا خلف نار

كأنا على شرفة الانهيار

كأنا لبسنا الدمار

كرغبتنا حين يأخذنا الشوق دون خيار

كأنا كتبنا وصيتنا بالخرافة

فوق جدار من الموت

فانهار فى كل سر جدار

فكان دمار وكان دمار

دمار دمار

دهر الندم

وبعد الذى كان
كان وكان
وقفنا على شرفة من ندم
وحول المسافات دمع ودم
وخلف الدماء
أنين الألم
كأن الغواية قد أكملت سرها
فاكتملنا على وهمنا
دون حلم
دموع ودم
دموع ودم

دهر النهايات

كأنا انتهينا
ولا مَنْ يشير لغير النهاية
لا سر نكشفه كى نرى
لا رؤى
كى نرتب أحلامنا من جديد
النهايات خلف النهايات
خلف النهايات
لا شيء بعد
فما فات فات
النهايات تغلقنا فى النهايات
النهايات تغلقنا فى النهايات

●●●

وضع الألواح جانبا وفى روحه خوف عظيم، كما قرأ ذلك فى عيني زوجته، قال له أية دهور ستمر علينا، وأية نبوءة تلك التى فى الألواح، قال لها:

- إنها اليقين القادم، ولن نشعر بالأمان إلا قليلا، لأن الدماء إذا سفكت اختلت كل الأشياء فى الوجود، وكلما ازداد سفك الدماء، اتسعت الفجوة بيننا وبين الفردوس، واتسعت المسافة بين نسلنا وبين تعاليم الألواح، حتى يغفل الجميع عن كل التعاليم فتأخذهم النهاية إلى ما يعرفون، كأنى أرى الجحيم القادم، الجحيم الجحيم، نهض وقال:

- لا بد من الإسراع إلى لقاء سلام، عسى أن يدخل الطمأنينة إلى روحى، ويفسر لنا الدهور التى وجدناها فى الألواح.

●●●

دهور تمر، ولا حكمة تستقر على مائها، وكان ما جاء فى نبوءة الأب، فوضعت زوجة سلام ذكرا فقالت لزوجها:

- نسميه .

قال:

- كما جاء بأمر، فتسميته بأمر.

فحارت وما حار، حمل الطفل بين يديه، ودخل إلى كهف التأمل ليوحى إليه باسمه، وما إن صار فى فراغ العتمة داخل الكهف حتى رفع الطفل على كفيه إلى الأعلى وقال:

- هذا هو أمرك أيتها السماء، هذا هو الطفل الذى منحتنا إياه حتى يعم الضياء، هذا هو الطفل الذى سيحمل حكمتنا بعدما كاد يموت فينا الرجاء، فماذا أسميه؟

فجاءه صوت:

- ليكن على اسم من سيدخل فى الغاشية.

فخذه إلى صدرك وامسح العتم من صدره كى تفيء إليه الحكمة.

- ولكن أين الذى سيدخل فى الغاشية؟

- إنه الآن حل بأرضك فاخرج إليه.

وما إن خرج سلام من الكهف حتى ألفى أخاه أديم وزوجته لدى الباب، فأعطى الطفل لزوجة أخيه، وأطالا عناقهما بعد هذا الغياب الطويل، بينما ذهبت زوجة أديم إلى زوجة سلام، واختلى سلام بأخيه وأخبره نبوءة أبيه. وقال له:

إن اسمه قد حل فى ابنه الآن، وأنه حين التقاه فى مقام الضباب لم يكن حلما، وإنما كانت رؤيا، لأن ماحدث أيقظ فى نفسه الرؤيا، فكان له ما كان، وما أخبره به لم يكن من مقام الكلام، وإنما كان وحيا تنزل فيه كتاب من الغيب.

فما كان من أديم إلا أن أستبشر بالمولود الجديد، لأنه خطوته باتجاه الغاشية، وقبل ينفض اللقاء بين أديم وسلام ليعود كل إلى زوجته، حدث أديم أخاه سلام بما يقلقه من أمر الألواح التى وجدها فى الكهف، وأن الدهور السعبة قادمة لا محالة، فهو فى رعب من ذلك، فلما اطلع عليها سلام، أيقن بما فيها، وقال له، علينا أن نسرع فى توطين الحكمة فى جهات الأرض، عسى ذلك يكون معينا لمن سيضل أن يهتدى.

وعاد سلام إلى زوجته بعدها، وقال لها:

- ليكن أديم بن سلام اسما لابننا وخلاصا.

فقالت له زوجته:

- وهل سميته أديم.

- هكذا شاءت المشيئة.

ولم يطل مقام أديم وزوجته سوى قمر من الوقت حتى إذا اكتمل القمر الأول بعد نزولهما أرض سلام، شعر أديم بتعب كما شعرت زوجته بذلك فترافقا ودخلا قصر أبيهما، عندها أدرك سلام أنهما قد دخلا فى الغاشية. وبدأ سلام بعد قمرين من غياب أخيه وزوجته يعد ألواح الحكمة التى سيحملها أديم بن سلام إلى نسل أخوته الذين ضلوا.

فقالت له زوجته:

- ولكن الطفل ما زال صغيرا على الحكمة.

وما إن أكملت كلماتها حتى وقعت الدهشة عليها وعلى زوجها، فقد نطق الطفل وهو فى حضن أمه قال:

- وُجدتُ بحكمة، ومن أجل الحكمة، وكنت.. لعل الخلاص يكون على يدى، فأمر المشيئة أوحى إلى، فإن لم يكن للخلاص سبيل يقين، سيأتى منى الخلاص المبين.

وصمت ولم يتكلم بعدها حتى بلغ مقام الكلام، وغشيت الدهشة والديه ثلاثة أيام من الصمت، بعدها أيقنت أمه بحكمة أبيه وما يفعله، وراحت تساعده فى عمله وتنسخ معه ألواح الحكمة.

حتى إذا اكتمل الطفل وبلغ، أتت نبوءة جده على كمالها، باكتمال حكمته، ليرحل بعدها فى المسافات ينشر الحكمة بما أوحى إليه، ولكن أمر الخلاص كما قال فى مهده لم يكن على يديه وإنما سيكون منه خلاص مبين.

وعاد أديم بن سلام برفقة زوجة تشف كما الضياء، وبقلّة من الأتباع، بعد أن غادر كثرةً من الضالين والفاسدين، حينها وضعت زوجة سلام ستة ذكور بستة بطون، دخلوا جميعهم الغاشية بعد مضى غابة من الوقت على ولادتهم.

وما إن حملت زوجة أديم بن سلام حتى اطمأن سلام إلى سريان الحكمة فى نسله وحلول اليقين فى روحه بالخلاص المبين، فدخل غاشيته برفقة زوجته.

وكان اسم الطفل على اسم من دخل الغاشية، سلام بن أديم بن سلام، وما إن بلغ الطفل اكتمال حكمته التى جمعت حكمة الوجود حتى دخل أبوه وأمه فى غاشيتهما، ليرحل بعدها بكتاب الخلود إلى كل من فى هذه الأرض من نسل، فضاق الضلال وحل الخلاص على الكائنات.

وأوحت له المشيئة أن يبنى سدا بين الضلال وبين الصلاح، فكان ذلك، وهاءت الأرض إلى دهر من الأمان، فاطمأنت روح سلام بن أديم بن سلام إلى غلبة الحكمة دهرا، فدخل هو الآخر فى صلوات الغياب، لتكتمل النبوءة كما كتبت فى المشيئة.

انتهى تحقيق المخطوطة

فى ١ / ٨ / ٢٠١٣

ملحق
صفحات من (أوراق عارف نسيم الطيار)
فيوض

١

الكلام زبد الصمت / والأبجدية دخان غامض يلوث بياض الفراغ/ مذ لبسنا وجودنا، صار الكلام ظلنا، نخفى وراء أشجاره عرينا/ فى الكلام خطيئتنا وغفراننا/ فى الكلام وجودنا وفناؤنا/ فى الكلام وجعنا، وحلمنا.

٢

الطبيعة انكماش الحقيقة / والظلال هياكل الروح تمحو إشراقها بالعتمة/ كلما انسربت فينا انسربنا منّا إلى المجهول.

تفسرنا بغموضها، ونفسرها بغموضنا/ هى فطرتنا التى كناها/ ونحن رسائلها التى لم تقلها بعد.

٣

الموت حياة فائضة بالألم / والنهاية ظل البداية / والاثنان أولان لآخرين، الموت وجع يبهت الروح، بأصابع دهشته المباغتة.

٤

الخلود غواية / والغواية فَقْدٌ / والفَقْدُ عبودية، الخلود فى الكينونة الزائلة قلق لا يزول/ الخلود صيرورة إليها نؤول.

٥

الحيووت مقام العارفين وسر الملكوت/ والعارف شهقة فى الطين، يستوى فى لجة الماوراء، كى يساره اليقين.

٦

الصمت مصفاة / والمصفاة ذات / والذات وجود / والوجود عدم / والعدم حياة. الصمت سحاب يشف عن الحضور وعن الغياب، سر لا يكشف إلا حينما يشف الحجاب.

٧

أوجدتك الحقيقة / وأخرجتك الخطيئة / وأنزلتك الغواية / وأغوتك البداية / كنت فى الـ (كن) / وجودا من عدم / وكنت فى الـ (كن) / عدما من وجود.

عزلة

١

العزلة تعنى ألا تطل على أحد، ألا يطل أحد عليك، أن تقف أمام المرآة المركونة فى زاوية معتمة تتأمل ظل عتمتك، وأنت شاهق فى الصمت.

العزلة أن تقول كل شيء، حين لا تقول أى شيء. أن تعلق ذاتك على مشجب اللامكان، أن تباغت ذاتك قبل أن يباغتك أحد.

٢

سيأتيك وقت لا ترى فيه شيئا سواك.. لا تعرف شيئا غيرك.. ولا تقرأ شيئا سوى تلك الأفكار المتطايرة حولك كأوراق الشجر اليابسة... أنت فى نفسك كلٌ وفى كلك كون، وفى كونك خلود..

٣

ترى هل أنا غريب أم العالم حولى هو الذى أصبح غريبا، وغربته لا تطاق؟ قال ذلك وانطوى فى غيبه كصفحة فى كتاب.

عتمة

١

العتمة مسافة غامضة / إشراق المجهول / اتصال الفراغ بالفراغ

٢

العتمة أول الوجود / وآخر البياض / رحلة الأشياء إلى المطلق

٣

العتمة وجد / نفق فى رمل الكائن / سلم اللانهاية

٤

العتمة رؤيا / سر الكاف / كان النون

٥

لا تنظر بعينيك / لأنهما لا يريان العماء

٦

العتمة عماء مبصر / والبصيرة وحدها / نزيف العماء

٧

لا تقل عرفت / فتكشف عن جهلك / لا تقل رأيت / فتعمى / لا تقل وصلت / ينهار جسر الرحلة / لا تقل.. / تأمل فقط

تأمل

عندما تفقد حتى الأشياء شيئيتها، تسقط الأحلام فى هاوية الخواء والحالمون يبدأون أولى الخطوات نحو التلاشى.

أتأمل شكل الغيب ولا أعرف أن أفسره، فكيف أفسر ما لا يفسر بالكلام.

يغشانى الفراغ، فأدخل فى العماء أغمض عينى لأدخل فى رؤيا العماء.

قال لي: لا تقل.. بل تأمل.. بالتأمل توسع القول فى المعنى، وتوسع المعنى فى الرؤيا، كى تصل إلى كمال تأملك بانفصالك عنك، لحظة اتصالك بك، فالاتصال والانفصال مقامات تدركها الروح فى دورانها.

قلت: تكاد الروح تنفصل عنى، وأكاد أنفصل عن الحلم.

قال: "الروح متصلة بالكون المحيط لا يحسبها زمان أو مكان"، "ومن كوشف عن عالم الأرواح ورأى اتصالها ونسبة بعضها من بعض، وأن ما بينها من افتراق ولا فى حقها زمان.. سهل عليه سماع ما لا يسمع غيره، ورؤيا ما لا يراه غيره".

قلت: وكيف لى أن أدخل فى مكاشفة الروح؟

قال: بجعلك معرفة القلب على مكاشفة الروح دليلا.

وقال لى أيضا: "قلب العارف لا يدرك له نهاية، وهو محل نظر الله من العبد، وموضع تجليه، وحضرة أسراره، ومهبط ملائكته وخزائن أنواره".

قلت: تربكنى حيرتى فى الوجود، كما يربكنى وجودى فى الحيرة.

قال: "الوجود أعمى، والإنسان هو حدقته الباصرة، والوجود جسد سوى أعضاء وجوارح والإنسان هو روحه المدبرة، والسبب فى أن الأكوان خلقت لأجل الإنسان أن الله عز وجل، أحب أن يعرف فخلق الخلق ليعرفوه، والإنسان هو عارف الوجود، وهو صاحب القلب الذى وسع الرحمن، وما وسعتنى أرضى، ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن".

وقال: من حار وحَّد، ومن وحَّد وجد ومن وجد فنى، ومن فنى بقى ومن بقى عبد ومن عبد جازى..

أغمضت عينى لأرى ما تشير إليه الحيرة.

فقال لى : لا تغمض عينيك، وإنما حدق فى النور. فرحت أحدق فى النور، حتى ظننت أننى فى عتمة لا أرى.

وقال لي:

- أنت فى عتمة النور.

قلت له:

- وما عتمة النور؟

قال:

- أن تدخل فى النور فلا ترى شيئا، حتى تظن أنك فى عتمة، فتدرك الأشياء فى خافياتها، كما يدرك الحلم خلايا الذاكرة.

وقال لي:

" إذا رأيت خرجت، وإذا لم تر فأنت المبصر، وإذا أبصرت فأنت الأعمى، وإذا عميت فأنت العارف، وإذا عرفت فأنت المفرغ، وإذا فرغت فأنت الممتلئ، وإذا امتلأت فأنت المشرق، وإذا أشرقت فأنت المبحر، وإذا أبحرت فأنت الغارق فى الأبحر".

ثم قال "إن صمتَّ اهتدى بك كل شيء، وإن تكلمت ضل بك كل شيء.

قلت له:

- ولكن ما زلت فى حيرة من ضل.

قال :

ستصبح فى حيرة من عرف.

سألته:

- وكيف لى أن أصبح فى حيرة من عرف؟

قال:

- اجعل مرآتك أوراقك البيضاء، متى دونت عليها صمتك، أخذتك حيرة من عرف.

وقال لي: "العتمة عذراء الوجود" / فابحث عنها، لتبحث فيها / وادخل فى حيرة منفاها / كى تدخل فى رحلتك الأولى.

لا تطلق أسرارك فى الأسماء / لا تلعن جهلك / فلست سواه/ ولست سواها.

أنت من العتمة وفى العتمة كنت، وفى العتمة ستعرف، فمن عرف فى العتمة شف عنه النور، وصار مع العارفين، "ألم تعلم أن العارفين كما هم اليوم، كذلك يكونون غدا، أجسامهم فى الجنان وقلوبهم فى حضرة الرحمن"؟

مسح على عينى، فغشيت فى النور، قال اقرأ فى لوح ذاكرتك فرحت أقرأ:

يا عذراء الوجود
لفينى كما أنت الآن
غطينى بشعرك الأسود
كما تغطين النور الآن
أشعر أن كتابا غامضا
يفتح الآن
لا أعرف أن أقرأ شيئا فيه
كم أنت غامضة أيتها الظلمة

وفى لحظة الحكاية، أصغيت إلى سرده المغوى، وغوايته فى السرد، دخلت فى الحكاية، كى تؤولنى قبل أن أغيب عن معناى، قال:

"وقد لقينا جماعة من عقلاء المجانين، وعاشرناهم، واقتبسنا من فوائدهم، ولقد وقفنا على واحد منهم، والناس قد اجتمعوا عليه، وهو ينتظر إليهم وهو يقول لهم: أطيعوا الله يا مساكين، فإنكم من طين، خلقتم، وأخاف عليكم، أن تطبخ النار هذه الأوانى، فتردها فخارا، فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخارا من غير أن تطبخها نار، يا مساكين لا يغرنكم إبليس بكونه يدخل النار معكم وتقولون: الله يقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين، إبليس خلقه الله من نار فهو يرجع إلى أصله، وأنتم من طين تتحكم النار فى مفاصلكم. يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق فى خطابه لإبليس بقوله: لأملأن جهنم منك، وهنا قف ولا تقرأ ما بعدها، فقال له: جهنم منك وهو قوله خلق الجان من مارج من نار، فمن دخل بيته وجاء إلى ذره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه، فهو راجع إلى ما به افتخر، وقال: أنا خير منه خلقنى من نار، فسروره رجوعه إلى أصله، وأنتم يا مناحيس تتفخر بالنار طينتكم فلا تسمعوا من إبليس ولا تطيعوا، واهربوا إلى محل النور تسعدوا، أنتم عمى لا تبصرون الذى أبصره أنا"

قلت: الحكاية تفتح القول، وتقلق المعنى.

قال: الحكاية جنون، لا يفسره إلا الجنون.

فلم أستطع أن أجد ما رمى إليه، فسلمت بالأمر وأنا ابتسم، وقلت: لا بد لمجنون أن يفسر هذا، ثم خطر لى خاطر، لماذا لا تكون تفاسير المجانين هى التفاسير التى خلقت الأساطير، والخرافات، عبر التاريخ، فحيث لم يستطع العقلاء أن يصلوا إلى فحوى تلك التفاسير والظواهر الطبيعية، أقام المجانين خيام أساطيرهم وتفاسيرهم.

قال: لا تؤول ما لا يؤول، وقم إلى مقام الوجد كى ينسدل عليك شجر الغيب.

وقال:

"شقت الكاف غزالة السماء

وذلك بعد صلاة العشاء

وأنا فى حال فناء

وما نقص جرمها

والكاف ما ربا جسمها

فقلت صدق من يسقط على الخبير فى إيراد الكبير على الصغير من غير أن يوسع الضيق الواسع

وهذا المقام الذى هو للأضداد جامع"

ولما بلغ بى التعب مبلغا لا طاقة لى على مقاومته وأنا فى مقام الرؤى، نمت وأنا فى حال من التبصر والسرور، وشعرت وكأن فى الكون نوافذ قد انفتحت أمامى، وأن الظلمة قد ازدهرت بالنور، فأشرقت روحى، وما إن دخلت فى حالة النوم وما هو بنوم، سمعت صوته يخاطبنى باسمي:

- يا عارف أنت لست فى حال تخاطب فيها الأحوال، ولم تبلغ من العرفان ما يدخلك الرؤى، فاصعد منك كما يصعد القول فى الخيال.

قلت: وما الذى أربك الحال؟

قال: فى أول حال ضاع منك حالٌ أنت منه.

قلت: عن أى حال تشير؟

قال: أبعد المرأة عن المرآة وادخل فى مرآة المرأة، تستوى فيك الصفات.

قلت: أصبحت فى حيرة من أمرى، ودخلت فى غواية الخطاب.

قال: الخطاب شكل نطلقه فى الفراغ، والأهم هو المجيب إذا أجاب، فأجبنى كما تشعر بى، وسأكلمك كما أراك، فالكشف عندى كالعتم عندك.

قلت: أنبئنى برؤياك، وأنا فى رعشة الحال.

قال: أحيانا تنبئك الأحوال فى حال، وأحيانا تدخل فى تيه الأقوال.

قلت: أنبئنى فأنا فى جهل مقيت، أتناثر كقطع الليل، إذا بقيت، وأموت إذا حييت، وأحيا فى رؤياك.

قال: قبل أن أفعل ذلك عليك بإصلاح المسالك.

قلت: وكيف أصلح المسالك وأنا أشعر أننى لا بد هالك؟

قال: لا تنشغل بما ليس لك فيه يد، وأصلح ما ليس من إصلاحه بد.

وقال: "الزمن كائن يتفاعل مع كل الكائنات، يحمل إليها فناءها، وتحمل إليه خلوده.. إنه ولم يكمل، غابت الكلمات كما غاب" حاولت أن أستدرج الغائب بالحاضر، فاستوت فى روحى الأسئلة..

ورحت أحدث نفسى وأنا أطوى الكلمات التى بدأت تتهيأ لى فى الصمت: أى غامض، ذلك المتوارى فى فضائنا، والظاهر فى عمائنا، والباطن فى أسرارنا، والنائم فى يقظتنا، والعارف لبداياتنا، ونهاياتنا، والمتناثر فى أحلامنا، يفتت أسماعنا المزروعة فينا، وينخر فى بهائنا، فنتوارى خلف ظلالنا المنخورة، ونتلاشى حيث لا نستطيع لملمة شتاتنا.

قلت: وقعت روحى على ظل من أهوى، فهويت فى الهوى، لا أعرف كيف أجمع الظل إلى الظل، كأنى دخلت فى مرآة المرأة حتى طوتنى، وشعرت أن قلبى فى مراياه انطوى.

قال: المحب، يتنفس مع من يحبه، ويشعر به، ويتحدث بلسانه، ويفكر بعقله، وينام فى ظله.

انتهت الأوراق

وبعدما أنهت وجد تحقيق مخطوطة (حوّادم) التى أدخلتها فى غيبوبة ذاتها، وأتبعتها بالأوراق التى عثرت عليها من أوراق عارف نسيم الطيار، شعرت بغربة ووحدة ورغبة للصمت والكلام، حاولت أن تؤول حالتها بكلمات، فلم تستطع إلى ذلك سبيلا، وكأنها كانت فى حالة من الانفصال عن الواقع وهى تدخل فى غيبوبة الكلمات والمعانى والأسرار، وما إن استيقظت من غيبوبة وجدها، حتى تذكرت أنها فى حلب التى تشهق كل صباح وكل مساء بالدماء، حلب التى كانت توقظ فى روحها شغف المكان، والزمان، أصبحت مقبرة لأهلها، لم تعد تعرف إلى أين تسير هذه المدينة الثكلى، ولا إلى أين يفضى شلال الدم الذى تنزف به الحجارة والساحات والبيوت والأشجار والحدائق، الجوامع والكنائس، الحروف والكلمات والمعانى، حتى الهواء فى حلب أصبح بلون الدم، النهر غص بالجثث كما الأرصفة، أى وجود فى حلب، وأية نهاية، وأى مصير ينتظرنا؟

قالت ذلك وشعرت بحاجة لأن تطفيء ذاكرتها، علّها تمحو ذاكرة الدم التى لبستها كظل لا يفارقها فى الصحو والحلم.

وما أربكها أكثر وأدخلها فى نفق من الغموض وخلخل حياتها، وأربك وجودها، اعتقال أخيها لمدة شهرين، دون أن يعرف سببا لذلك، ليكتشف لحظة الإفراج عنه أن هناك تشابها فى الأسماء، فغادر المعتقل صامتا منهك الروح والقلب والجسد.

وتبع ذلك تفجير المقهى السياحى الذى كانت ترتب فيه بعض أوراقها مع فنجان قهوة سادة، بقدر ما فاجأها الخبر بقدر ما شرخ روحها، وهى تتصور ذلك المقهى يتناثر كما تتناثر أوراق الخريف، لتصبح الذكريات فيه رمادا ينطوى على رماد.

فردت ورقة بيضاء بعدما شعرت بحاجة للكتابة، ولكن بقيت زمنا طويلا وهى تفكر بالكلمة الأولى التى ستخطها، كتبت كلمة دم، ثم صمتت، شعرت وكأن يدها تتحرك بلا إرادتها لتملأ الصفحة البيضاء بالدم، صمتت قليلا وتابعت الكتابة. أهى المدينة التى تدخل فى الغياب أم نحن الذين دخلنا بوابة النهاية بعد أن دخلنا بوابة الضلال.

شعرت كأن شيئا من دمها يتسرب فى الفراغ.. فقالت بصوت مسموع:

لعلها النهايات التى ابتكرناها بغينا /

سمعت صوتا من شرفتها، أصغت، فلم يكن هناك أى صوت، ولكنها شعرت بيد تمسح على عينيها فتنام، وهى تردد:

- ربما نبتكر الحياة بعدها

قالت وهى فى غيبوبة اللحظة:

- أيها الغائب فى كلماتى أنبئنى باتجاهاتى، وأيقظ الحلم فى ذاتى.

فتحت عينيها فلم تجد الورقة، بحثت عنها، لكنها لم تفلح فى إيجادها، تأملت غرفتها، شعرت برغبة فى أن تعيد قراءة المخطوطة التى أخذتها إلى بوحها، لكنها ما إن فتحتها حتى استحالت كلماتها إلى لون الدم، فانفجرت لغة الصمت.

طوت أوراقها على حزنها، لتدخل فى حزن شديد، أيقظها من غفلتها صوت انفجار كبير، اهتزت له النوافذ والأبواب، كما اهتزت روحها من الخوف.

تساءلت: أى جحيم ينهض فى ذاكرتها؟ استعادت أرشيف الدم منذ أن كان الوجود حتى طوته على دم ينهض الآن فى كل أرض، شهقت أمام لوحة تشكلت أمامها، أيقظت ذاكرة الصمت بأصابع الخوف وانطوت كحرف على معناه.. أحست برعب قد لفها بهاجس أن السماء ستمطر دما وكأن الوجود

دم. لم تشأ أن تفتح التلفاز لترى إلى أى جهة قد امتدت الدماء، خشية أن تنفر الدماء من شاشته. نهضت وكأن تعبا شديدا قد حل عليها، جرت خطواتها بتثاقل نحو السرير، استلقت وغفت، فرأته حزينا يمد يده لها، مدت يدها له وهى تردد:

سننهض من أسمائنا
لنغيب فى أسرارنا
معا نتأمل / معا نرى / معا نكشف
معا نرفع بعضنا إلى مقام الأحلام
معا نتلاشى فى بعضنا لنكتمل
معا نبوح بكل ما لدينا
ونقتفى سر الوجود
معا سندرك كل أسرار الخلود

أخذها إليه وشدته إليها فاكتملا ثم دخلا فى الغاشية.

انتهى

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

بهاء طاهر.. الناي الحزين

حسين عيد

يصدر ٥ يناير ٢٠١٦

سلسلة روايات الهلال تقدم:

بوابات الرحيل

بكري عبدالحميد

تصدر ١٥ يناير ٢٠١٦

أحدث إصدارات روايات الهلال عامى ٢٠١٤-٢٠١٥

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
الحائط الأخير	سميرعبدالفتاح	ديسمبر	٢٠١٤	٧٩٠
مثل ترنيمة	بيروميا دافام سرى دهاران	يناير	٢٠١٥	٧٩١
لا تنس الهدهد	فؤاد حجازى	فبراير	٢٠١٥	٧٩٢
البومة العمياء	صادق هدايت	مارس	٢٠١٥	٧٩٣
امرأة الريح	صفاء عبدالمنعم	أبريل	٢٠١٥	٧٩٤
إنى وضعتها أنثى	سعيدة تاقى	مايو	٢٠١٥	٧٩٥
سكر مر	محمود عوض عبدالعال	يونيو	٢٠١٥	٧٩٦
فى عشق جيفارا	آناميناندس	يوليو	٢٠١٥	٧٩٧
العربة الرمادية	بشرى أبو شرار	أغسطس	٢٠١٥	٧٩٨
رمضان المسيحى	عادل سعد	سبتمبر	٢٠١٥	٧٩٩
سرابيوم	محمود عرفات	أكتوبر	٢٠١٥	٨٠٠
بشر نسيهم الله	ألبير قصيرى	نوفمبر	٢٠١٥	٨٠١

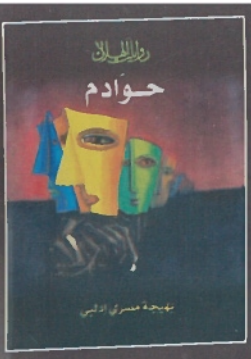

لأن الدماء إذا سفكت اختلت كل الأشياء في الوجود. وكلما ازداد سفك الدماء، اتسعت الفجوة بيننا وبين الفردوس، واتسعت المسافة بين نسلنا وبين تعاليم الألواح، حتى يغفل الجميع عن كل التعاليم، فتأخذهم النهاية إلى ما يعرفون، كأني أرى الجحيم القادم.

تساءلت: أي جحيم ينهش في ذاكرتها؟ استعادت أرشيف الدم منذ أن كان الوجود حتى طوته على دم ينهض الآن في كل أرض. شهقت أمام لوحة تشكلتْ أمامها، أيقظت ذاكرة الصمت بأصابع الخوف، وانطوت كحرف على معناه. أحست برعب قد لفها بهاجس أن السماء ستمطر دما وكان الوجود دم. لم تشأ أن تفتح التلفاز لترى إلى أي جهة قد امتدت الدماء، خشية أن تنفر الدماء من شاشته. نهضت وكأن تعبا شديدا قد حل عليها، جرت خطواتها بتثاقل نحو السرير، استلقت وغفت، فرأته حزينا يمد يده لها، مدت يدها له.

المؤلفة

بهيجة مصري إدلبي:
كاتبة وشاعرة سورية، دكتوراه في فلسفة الإدارة التربوية، لها أربع عشرة مجموعة شعرية منها: «امرأة من خزف الروح»، «صلاة في محراب الذات»، «إشراقات الروح». وأربع روايات، منها «الغاوي»، «رحلة في الزمن العمودي». وثمانية كتب في النقد الأدبي: «الأدب التفاعلي وحوار الثقافات»، «السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي»، «محمود درويش والعروج إلى ما وراء المعنى». ونالت عددا من الجوائز العربية في أجناس أدبية متعددة.